بشؤون الشرق الأوسط ـ يميلون للنظر الى الأمور نظرة واسعة، الى عاصمتين مستعمرتين هما عاصمتا مصر والسودان حيث لا حدود ولا قيود لتحد أو تقيد تحاملات الموظفين القدامى. ان الجيب البريطاني في كل من القاهرة والخرطوم كان يمثل البيئة التي كان وزير الحربية تواقاً للعودة اليها والتي لم ينفصل اطلاقاً عنها روحياً.

ويقول أحد المراقبين إن ضعف وزير الحربية كان يتمثل في «كونه بشكل ما أجنبياً» في انكلترا[1]. فقد كانت لندن بالنسبة له أكثر غربة من القاهرة أو كلكتا. وكان الفيلد مارشال يرتبك ارتباكاً شديداً أمام الوجوه غير المألوفة له. وبدلاً من أن يعتمد على وزارة الحربية ووزارة الخارجية في لندن لتلقي المعلومات والنصح بشأن الشرق الأوسط، ظل يرجع الى مرؤوسيه في مصر. وعندما عُين وزيراً للحربية طلب الى رونالد ستورز، سكرتيره للشؤون الشرقية أن يبقى معه في لندن. وقد نبهه ستورز الى أن الأنظمة الحكومية لا تسمح بذلك، ولكن لدى عودة ستورز الى مصر ظل كيتشنر يستوحي مقترحاته. وقد كان ستورز ابن قسيس من الكنيسة الانجيلية، تخرج من بيمبروك في كامبردج وكان متفوقاً فكرياً، وهو آنذاك في منتصف الثلاثينات من عمره. ومع أنه لم يرتفع عن مستوى طالب جامعي في دراسة اللغات والآداب الشرقية، فإن عمله سكرتيراً للشؤون الشرقية في مقر المعتمد البريطاني في القاهرة مدة تزيد على عقدٍ من السنين، قد ثبّت وضعه خبيراً في شؤون الشرق الأوسط. إن رتبته المتدنية ـ عند نشوب الحرب حصل على مكانة دبلوماسية ولو انها لم تتجاوز مستوى سكرتير ثانٍ ـ لم تكن مؤشراً الى مكانته العالية لدى الفيلد مارشال.

(٢)

مع حلول نهاية عام ١٩١٤ بدا واضحاً أن الحرب لن تصل الى نهاية سريعة، وان الفيلد مارشال لن يتمكن من العودة الى القاهرة مدة من الزمن، ولا بد نتيجة لذلك من اختيار حاكم بريطاني جديد في مصر. ورغبة من كيتشنر في ابقاء هذا المنصب في القاهرة شاغراً حتى عودته، فقد اختار هو شخصياً سير هنري مكماهون ليخدم بديلاً عنه (حاملاً لقباً جديداً هو لقب المندوب السامي بدلاً من لقب المعتمد) وقد كان مكماهون موظفاً من الهند لا لون له وعلى وشك أن يتقاعد.

وبالرغم من تعيين مكماهون ظل رونالد ستورز وزملاؤه في مصر والسودان ينظرون الى وزير الحربية على أنه رئيسهم الحقيقي. فكان سير جون ماكسويل، القائد العام للقوات البريطانية في مصر يرفع تقاريره الى كيتشنر في وزارة الحربية مباشرة بدلاً أن يرفعها الى المندوب السامي الجديد أو عن طريقه.

وقد كان الجنرال سير فرنسيس رجينالد وينغيت، الذي خلف كيتشنر في منصبي سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام، هو الشخصية الرئيسة بين أتباع وزير الحربية في الشرق

(١) **مذكرات الحرب للورد ريدل ١٩١٤ ـ ١٩١٨** (لندن: ايفور نيكولسون وواطسون، ١٩٣٣)، ص ٧٥.

الأوسط. وقد أمضى وينغيت كامل حياته العملية في الخدمة العسكرية في الشرق، وبصورة رئيسة في المخابرات العسكرية، وحصل على شهادة عليا في اللغة العربية. وعن دوره في حملة الخرطوم التي قادها كيتشنر كتب الصحافي جورج ستيفنز يقول: «كان الكولونيل وينغيت يعرف بالتأكيد كل ما تنبغي معرفته، لأن شاغله كان أن يعرف كل شيءٍ... أما إبن الأكاذيب الغامض، أي العربي، فقد كان الكولونيل وينغيت يستطيع أن يحادثه ساعاتٍ وأن يعرف في النهاية ليس فقط مدى الصدق في ما رواه بل كان يعرف أيضاً وبدقة مقدار الصدق الذي أخفاه... فلا شيء يخفى على الكولونيل وينغيت»[٢].

كان وينغيت يحكم السودان من مدينة الخرطوم هذه العاصمة التي لوحتها الشمس ويسكنها نحو ٧٠,٠٠٠ نسمة، والتي أعيد بناؤها بالكامل وفقاً لمواصفاتٍ وضعها اللورد كيتشنر. والخرطوم تبعد عن القاهرة، سواء كان السفر اليها بالبواخر النهرية أو بالقطار، مسافة ١٣٤٥ ميلاً، ولذلك شعر وينغيت أنه مبعد ومهمل. وقد أرسل بتاريخ ١٥ شباط (فبراير) ١٩١٥ رسالة كتب عليها عبارة «خاص جداً» الى معتمده في العاصمة المصرية بثه فيها مقدار ما يشعر به من ألم، قال فيها:

«كلما فكرت في مسألة السياسة العربية والوضع الغريب الذي انزلقت اليه بسبب عدد (الطباخين) الذين يشاركون في وضعها، قل استحساني لاظهار أنفسنا الى العلن ما لم يكن مطلوباً منا رسمياً أن ندلي ببيان يتضمن وجهات نظرنا.

اني أتحدث عن نفسي ـ ولا بد لك من أن تتذكر انه بالرغم من منصبي في مصر والسودان وبالرغم من عدد السنين التي أمضيتها في هذا البلد، فإنهم لم يستفيدوا سوى استفادة ضئيلة من خبرتي في هذا الأمر أو في غيره من الأمور ذات الصلة بالوضع.

وكما سبق أن قلت مراراً، أعتقد أن وضعنا الجغرافي ـ السياسي وصلتنا بالولايات العربية الأقرب الينا قد وفّرت لنا فرصاً لفهم الوضع هناك ـ وفهم وجهات نظر مسلمي الأماكن المقدسة ـ فهماً أفضل من فهم كثيرين غيرنا، ولكن من الواضح أن لا سلطات وزارة الداخلية ولا سلطات وزارة شؤون الهند تشاطرنا وجهة النظر هذه ولذلك أفضل الصمت في الوقت الراهن»[٣].

وحقيقة الأمر أن وينغيت لم يتحمل البقاء صامتاً، فلم يمضِ سوى اثني عشر يوماً حتى كتب يقول انه بدّل رأيه وقرر «انه ينبغي لنا ألا نحتفظ لأنفسنا بالمعلومات ووجهات النظر التي قد تكون نافعةً» لأولئك المسؤولين عن صنع السياسة[٤].

كان وكيل وينغيت في القاهرة ـ أي الممثل الرسمي لحكومة السودان في مصر ـ هو جيلبرت كلايتون، الذي سبق له أن خدم تحت امرة اللورد كيتشنر في حملة السودان. كان كلايتون قد

(٢) ج. و. ستيفنز **مع كيتشنر إلى الخرطوم** (نيويورك: رود، مين ١٩١٠)، الصفحتان ٦٤ ـ ٦٥.

(٣) جامعة دورهام، **محفوظات وثائق السودان**. **اوراق جيلبرت كلايتون**، ٨/٤٦٩.

(٤) المرجع نفسه.

أصبح ضابطاً في المدفعية الملكية في عام ١٨٩٥ ثم ذهب الى مصر، ومنذ ذلك الحين استمر يعمل في مصر أو في السودان. وقد عمل بين عام ١٩٠٨ وعام ١٩١٣ سكرتيراً خاصاً للجنرال وينغيت، ومنذ عام ١٩١٣ عمل وكيلاً للسودان في القاهرة وفي الوقت عينه مديراً لمخابرات الجيش المصري. وانتقل كلايتون الى موقع مركزي في صنع سياسة بريطانيا العربية عندما أصبح بتاريخ ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٤، وبقرار من القائد العام في مصر سير جون ماكسويل، الذي كان على صلة مباشرة باللورد كيتشنر، رئيساً لكل أجهزة المخابرات في القاهرة ـ أي مخابرات السلطة المدنية البريطانية ومخابرات الجيش البريطاني ومخابرات الجيش المصري. وهكذا صارت لندن تتلقى من مصر صيغة واحدة فقط للمعطيات الاستخبارية، هي الصيغة التي يرسلها كلايتون، بدلاً من أن تتلقى صيغاً من ثلاثة مصادر. وما لبث كلايتون الذي كان نقيباً سابقاً في الجيش أن نال ترقيات سريعة خلال الحرب فأصبح في نهايتها جنرالاً.

وقد عمل كلايتون بأسلوبه الأبوي ناصحاً وموجهاً لمحبي علم الآثار والمستشرقين الشباب المغامرين الذين تقاطروا إلى القاهرة للخدمة في أجهزة المخابرات خلال الحرب. ولا بد انه كان يمتلك صفات انسانية فذة إذ أن أولئك الشباب الذين كان يوجههم قد أحبوه جميعاً واحترموه بالرغم من تباينهم عنه في مجالات أخرى. لقد رأوا فيه الانسان الحاذق والصبور والثابت. كان يكبر معظمهم بنحو عشر سنوات وكانوا جميعاً يستمعون الى نصحه سواء أخذوا أو لم يأخذوا بهذا النصح. لقد كان بالنسبة لهم تجسيداً للجيل القديم.

(٣)

مع أن وزارتي الخارجية وشؤون الهند كثيراً ما كانتا تختلفان مع وجهات النظر أو المقترحات التي كان يطرحها وينغيت وكلايتون، فما من أحد خلال الحرب ناقش قدرتهما المهنية أو معرفتهما المستندة الى تجربة طويلة في الشرق الأوسط. وقد مضت سنوات على انتهاء الحرب قبل أن يأخذ ديفيد لويد جورج، استناداً الى معلومات توفرت من الجانب الألماني، بالرأي القائل انهما كانا عديمي الكفاءة الى حدٍ خطر.

وحسب أقوال لويد جورج كانت السلطات البريطانية في القاهرة عمياء إزاء ما كان يحدث خلف خطوط العدو. وقد كتب يقول بصورة خاصة انه مرت فترة في عام ١٩١٦ كانت خلالها الامبراطورية العثمانية شديدة الاجهاد الى حد العجز عن متابعة القتال. ويضيف لويد جورج انه لو كانت القوات البريطانية في مصر قد شنت آنذاك هجوماً على سيناء وفلسطين ـ بل لو فعلت ذلك في عام ١٩١٥ ـ لما احتاجت إلا الى جهدٍ ضئيل لتحطيم الأتراك، وهذا كان بدوره قد أتاح لبريطانيا أن تتحرك عبر البلقان لإلحاق الهزيمة بألمانيا[٥]. ويرى لويد جورج أن الفرصة ضاعت لأن أجهزة المخابرات إما انها لم تكن تعرف ما كان يجري في الامبراطورية العثمانية أو إنها

(٥) **مذكرات ديفيد لويد جورج عن الحرب**، المجلد الثالث ١٩١٦ ـ ١٩١٧ (بوسطن: ليتل، براون، ١٩٣٤)، الصفحتان ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

قصرت في الإبلاغ عن ذلك. وهو يدعي أن النتيجة كانت أن الحكومة البريطانية أخفقت في كسب الحرب خلال السنوات عندما كان بامكانها أن تكسبها وفقاً للشروط البريطانية.

وثمة تقصير من جانب أجهزة المخابرات في القاهرة أسهل على الاثبات، وهو أن مخابرات القاهرة لم تكن مدركة مدى اختراق عملاء العدو للحكومة المصرية. فلم يتم تحطيم الشبكة التركية إلا بعد أن وصل الى القاهرة في عام ١٩١٦ ويندهام ديدن، ذلك الخبير في الشؤون العثمانية، ليعمل فيها ومن ثم يكتشف أن قوى الشرطة المصرية كانت مزروعة بالجواسيس.

إن إحدى الاشارات المبكرة الى عدم كفاءة جهاز المخابرات في القاهرة التي كان ينبغي أن ترسل شارة تحذير ولكنها لم ترسلها، ظهرت في خريف عام ١٩١٤ قبل بدء الحرب العثمانية بنحو شهر، وكان ذلك عندما كتب الجنرال ماكسويل القائد المحلي للجيش البريطاني في مصر الى اللورد كيتشنر ليبلغه «أن من العسير جداً اعطاء قيمة حقيقية لجميع التقارير التي ترد من القسطنطينية وآسيا الصغرى وسورية... فأنا لا أستطيع الحصول على معلومات مباشرة لأن الأتراك يحرسون الحدود حراسة شديدة ـ وعملاؤنا لا يستطيعون المرور عبرها ـ أما الذين هم في الجانب الآخر فقد وقعوا في الفخ». وأضاف بلهجة مقلقة بشأن عدم توازن المخابرات: «إن الشرق مليء بالجواسيس الألمان وهم يحصلون على معلومات جيدة الى حد ما»(٦).

لقد كان ماكسويل على أقل تقدير مدركاً أنه لا يعرف ما يجري في القسطنطينية. أما وينغيت وكلايتون فقد وقعا في فخ الاعتقاد أنهما يعرفان. وقد أخذا بنظرية جيرالد فيتزموريس الخاطئة ومفادها أن الحكومة العثمانية كانت في قبضات أيدي مجموعة من اليهود الموالين لألمانيا. وفي نهاية عام ١٩١٤ ألقى الجنرال وينغيت تبعة وقوع الحرب على «تجمع من اليهود وأصحاب رؤوس الأموال والمتآمرين الدون» في القسطنطينية(٧).

لقد ضاعف وينغيت وزملاؤه الخطأ بربطهم إياه بمعلومات مضللة عن حالة الرأي العام الإسلامي. فبعيد بدء الحرب أرسل ستورز الى ماكسويل تقريراً ضمنه ملاحظات تلقاها من مخبر سوري عن الرأي العام خلف خطوط العدو. وقد قال ذلك المخبر أن سكان سورية يملأ نفوسهم كره الحكومة العثمانية لاعتقادهم أنها ستؤيد الصهيونية. وقال المخبر أيضاً «ان الصهاينة على علاقة وثيقة مع برلين ومع القسطنطينية وانهم يمثلون العامل الأهم في السياسة المتعلقة بفلسطين»(٨). ان الشائعة الكاذبة القائلة إن برلين والقسطنطينية كانتا على وشك دعم الصهيونية تردد صداها جيئة وذهاباً طوال سنين، ثم انها ضللت خلال الحرب مجلس الوزراء البريطاني وجعلته يعتقد أنه كان عليه أن يصدر فوراً إعلاناً مؤيداً للصهيونية.

لقد كتب ستورز الى كيتشنر (بعبارة أخرى الى سكرتيره العسكري الخاص أوزوالد فيتزيجرالد)

(٦) كيو، مكتب السجلات العامة، أوراق كيتشنر ٣٠/٥٧ ٤٥ الوثيقة ٤٥..

(٧) جامعة دورهام، محفوظات وثائق السودان، أوراق جيلبرت كلايتون ٤٧٠/٤.

(٨) كيو، مكتب السجلات العامة، أوراق كيتشنر ٣٠/٥٧ ٤٥ الوثيقة ٧١..

في نهاية العام معقباً على الخطط الخاصة بالشرق الأوسط في فترة ما بعد الحرب فادعى أن المسلمين سيعارضون قيام فلسطين يهودية لأنهم يوجهون اللوم إلى اليهود في اشتعال الحرب. «ثم، ألن يشعر الاسلام بغضب شديد إزاء فكرة تسليم البلاد التي نفتحها الى أناس لم يكن لهم دور في الحرب بصفتهم أمة، وساعد قسم منهم بلا ريب في دفع الأتراك الى حافة الهاوية؟»[٩]. وحقيقة الأمر هي أن الرأي العام الاسلامي حتى في المناطق غير التركية كان بوجه عام مؤيداً الامبراطورية العثمانية وتحالفها مع ألمانيا وهذا ما بينته لاحقاً تقارير وزارة الخارجية والمكتب العربي. وقد أخطأ ستورز أيضاً في افتراض أن معارضة المسلمين لقيام فلسطين يهودية هي بسبب الحرب إذ ان هذه المعارضة كانت قد ظهرت قبل الحرب بوقت طويل في أعقاب بناء المستعمرات الصهيونية عند نهاية القرن التاسع عشر.

إن إحدى المثالب التي طبعت بطابعها عملية جمع المعلومات التي أجراها كلايتون وستورز هي انهما كثيراً ما كانا يقبلان المعلومات التي يزودهما بها مخبر فرد من دون التثبت من صحتها، وبدلاً من ذلك بدا انهما يعتمدان على ذلك النوع من القدرة التي عزاها ستيفنز الى وينغيت، وهو يعني بذلك موهبة معرفة مدى الصحة في ما يقوله مواطن من أهل البلاد، إن جون بوتشان، الذي أصبح في ما بعد مدير الاعلام في لندن زمن الحرب، كتب في الفصل الثاني من رواية المغامرات التي أسماها (العباءة الخضراء ـ غرين مانتل) أن «الصدق هو أننا العرق الوحيد على الأرض الذي يستطيع انتاج رجال قادرين على النفاذ الى داخل جلود شعوب نائية. وقد يكون الاسكتلنديون أفضل من الانكليز، ولكننا جميعاً أفضل من أي قوم آخر بمعدل ألف بالمئة». لقد تصرف وينغيت وكلايتون وستورز وكأنهم يفهمون أبناء الامبراطورية العثمانية بقدر ما فهمهم البطل الاسكتلندي في رواية بوتشان. ولكن تبين أن قدرتهم على فهم أبناء البلاد كانت محدودة تماماً.

إن البريطانيين في القاهرة عند تقويمهم للتقارير التي تحدثت عن استياء الحكم العثماني في بعض أقسام الامبراطورية قد أخطؤوا في فهم احدى الخصائص البارزة للشرق الأوسط الاسلامي: أي أن هذا الشرق بقدر ما كان له من وعي سياسي لم يكن مستعداً للقبول بحكم غير إسلامي. لقد كان هناك خلف خطوط العدو مسلمون غير راضين عن حكومة حزب تركيا الفتاة ولكنهم كانوا يدعون الى إبدالها بحكومة تركية مختلفة أو في أي حال بحكومة اسلامية مختلفة. فقد كانوا يعتبرون الحكم من قبل دولة أوروبية مسيحية مثل بريطانيا أمراً لا يطاق.

والظاهر أن ستورز اعتقد أن باستطاعته أن يلتف على هذا الأمر عن طريق التظاهر أن الحكم المصري سيحل محل الحكم التركي. وقد اقترح انشاء ما من شأنه أن يبدو امبراطورية مصرية جديدة لتحل محل الامبراطورية العثمانية الناطقة بالعربية في الشرق الأوسط. وكان اللورد كيتشنر سيحكم من خلف هذه الواجهة بصفة نائب ملك بريطانيا. وقد استمد ستورز ارتياحاً

---

(٩) المرجع نفسه، الوثيقة ٧٣..

خاصاً من التقارير القائلة ان الحكم العثماني فقد في سورية شعبيته، واعتقد أن بامكانه أن يقدم للسوريين بديلاً ذا شعبية. ان التقارير الدقيقة التي وصلت بشيء من التكرار دلت على أنه باستثناء الموارنة الذين لهم روابط مع فرنسا كان معظم السوريين الذين لهم نظرة سياسية يرفضون امكانية أن تحكمهم فرنسا في عالم ما بعد الحرب، وبما أن ستورز وزملاءه اعتبروا أن من الأمور المسلم بها أن الشعوب الناطقة بالعربية غير قادرة على أن تحكم نفسها بنفسها فان الامكانية الوحيدة المتبقية هي تلك التي ينادي بها ستورز: أي دمج سوريا في مصر التي تحكمها بريطانيا.

في ضوء ذلك بدت التقارير القائلة ان السوريين يعتبرون الألمان والأتراك صهاينة وأنهم يكرهون الفرنسيين، وكأنها تعني أن السوريين لا بد أن يكونوا موالين لبريطانيا. لقد ذكر كلايتون في تلخيصه مذكرة قدمها زعيم سوري كان يدعو الى استقلال العرب، أن «انكلترة، ووحدها انكلترة، هي التي يتجه اليها السوريون المسيحيون منهم والعروبيون على السواء»[١٠]. وفي الثاني من شباط (فبراير) ١٩١٥ كتب ستورز الى فيتز جيرالد/كيتشنر قائلاً: «لا شك في أن الشعور السوري المحلي، لدى المسيحيين والمسلمين على السواء، هو شعور قوي محبذ لإلحاق ذلك البلد من قبلنا بالسلطنة المصرية»[١١]. فكان السؤال: هل ينبغي العمل لتنمية ذلك الشعور. وفي اليوم عينه سعى المندوب السامي الواصل حديثاً الى القاهرة، أي مكماهون، للحصول على توجيه، فكتب الى فيتز جيرالد /كيتشنر شارحاً البدائل، دون ريب، كما وصفها له ستورز وكلايتون فقال: «ان السوريين يريدون تدخلنا ويقولون انه إذا لم نستطع أن نقدم لهم ضماناً بالتأييد فانهم سيضطرون للتوجه الى الفرنسيين مع أنهم يفضلوننا على الفرنسيين»[١٢].

إن رجال بريطانيا في المنطقة، بأخطائهم وطموحهم المهني، قد افترضوا أن العرب يريدون أن يحكمهم أوروبيون فاعتمدوا على هذا الاعتقاد الخاطىء، بينما كان هدفهم أن يسيطروا على سورية. ورجال فرنسا في المنطقة أيضاً كانوا مخطئين وطموحين وهم أيضاً كان هدفهم الاستيلاء على سورية.

(٤)

خلال الحروب الصليبية كسب الفرسان الفرنسيون ممالك وبنوا قلاعاً في سورية. وفي عام ١٩١٤ ـ أي بعد الحروب الصليبية بألف عام ـ كان لا يزال هناك فرنسيون يعتبرون سورية جزءاً من فرنسا. وقد حافظت فرنسا على علاقات وثيقة مع إحدى المجموعات المسيحية على ساحل جبل لبنان في سورية، وكانت صناعة النقل البحري الفرنسي وصناعة الحرير

(١٠) جامعة دورهام، محفوظات وثائق السودان، أوراق كلايتون الأساس ج/س ٥١٣ الملف ١.

(١١) كيو. مكتب السجلات العامة. أوراق كيتشنر ٣٠/٥٧ ٤٥ الوثيقة ق.ق. ١٦.

(١٢) المرجع نفسه، الوثيقة ق.ق. ١٥.

والمصالح الأخرى الفرنسية تترقب امكانيات تجارية في المنطقة. وعلى ذلك فإن فرنسا لأسباب دينية واقتصادية وتاريخية رأت أن لها دوراً تقوم به في شؤون سورية.

وعند لحظة دخول الامبراطورية العثمانية الحرب، أعد الموظفون الفرنسيون في الشرق الأوسط (شأنهم شأن نظرائهم البريطانيين وينغيت وكلايتون وستورز) خططاً لضم الولايات السورية التابعة لتركيا. وبادر الوزير الفرنسي المفوض في القاهرة والقنصل الفرنسي العام في بيروت الى حث حكومتهما على غزو الساحل اللبناني. وقد دعت خطتهما الدونكيشوتية الى إنزال نحو ألفي جندي فرنسي فقط، ينضم اليهم ـ حسب اعتقادهم ـ ثلاثون ألف متطوع من أهل البلد. وكان رأيهما أن عامل السرعة جوهري وأن على فرنسا أن تضرب قبل أن تتمكن تركيا من حشد جيش وقبل أن تتمكن بريطانيا من توجيه الضربة الأولى(١٣).

جاء اقتراحهما في أقل الأوقات ملاءمة. فقد تلقته الحكومة الفرنسية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤، وكانت لا تزال في المنفى في مدينة بوردو، بعد هربها من باريس أمام الزحف الألماني باتجاه المارن. صحيح أنه كانت في البرلمان الفرنسي وفي وزارة الخارجية ومجلس الوزراء شخصيات ذات سطوة من دعاة الاستعمار، لكن شهر تشرين الثاني (نوفمبر) كان شهراً لا يزال انتباه الجميع فيه مركزاً على الصراع المصيري في شمال فرنسا وبلجيكا. وهكذا فقد رفض اقتراح ارسال قواتٍ الى سورية.

بيد أن اقتراح غزو سورية لقي اهتماماً في الشهر التالي، بعد أن كانت الجيوش المتصارعة في أوروبا قد كمنت في خنادقها وعادت الحكومة الفرنسية الى باريس. وقد حصل وفد من السياسيين دعاة الاستعمار على موافقة مبدئية من ألكسندر ميبران وزير الحربية بتأييد الحملة على سورية. غير أن وزير الخارجية تيوفيل ديلكاسيه ظل متشبثاً بمعارضة الحملة قائلاً: «لا شيء يبدو أقل استحساناً من التدخل في سورية»(١٤). وكان ديلكاسيه واحداً من مسؤولين فرنسيين كثيرين اعتقدوا أن ضم سوري أقل قيمة لبلادهم بكثير من المحافظة على الامبراطورية العثمانية. فحتى عام ١٩١٤ كانت فرنسا تزود القطاع الخاص في الاقتصاد العثماني بخمسة وأربعين بالمئة من رأس المال الأجنبي الذي يحتاجه، وكانت مصدر ستين بالمئة من الدين العام العثماني، ولذلك كانت لها مصلحة ضخمة في استمرار بقاء وحيوية الامبراطورية العثمانية(١٥).

خلال يومي ٣٠ و٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٤ زار باريس سير هنري مكماهون الذي كان على وشك أن يتولى مسؤولياته بديلاً لكيتشنر في القاهرة، فاجتمع بمسؤولين من وزارتي الخارجية والحربية ولكنه عجز عن تقديم أجوبة متماسكة عن أسئلة بشأن سياسة بريطانيا

(١٣) كريستوفر. اندرو وا.س. كانيا ـ فورستنر، **ذروة التوسع الامبراطوري الفرنسي ١٩١٤ ـ ١٩٢٤** (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، ١٩٨١)، ص ٦٨.

(١٤) المرجع نفسه، ص ٦٩.

(١٥) المرجع نفسه، ص ٤٠.

الشرق أوسطية. وكان صيت مكماهون أنه بليد الذهن وغير فعال، ولكن الفرنسيين الذين لم يسبق لهم أن عرفوه افترضوا فيه المهارة والحذق، وفسر ميران، وزير الحربية، أجوبة مكماهون التي لا تنم عن الكفاءة بأنها مراوغات مقصودة وذكية تخفي وراءها خطة بريطانيا السرية لغزو سورية واحتلالها[١٦].

وبادر ميران فوراً باطلاع مجلس الوزراء الفرنسي على هذه المحادثات، وكان مجلس الوزراء قد عهد اليه بانشاء قوة ضاربة لغزو سورية حالما تغزوها بريطانيا سواءً دعيت فرنسا للمشاركة في الغزو أو لم تدع. وقد ذهب ديلكاسيه الى لندن في شهر شباط (فبراير) ١٩١٥ وأثار مسألة سورية مع سير ادوارد غراي. واستمع وزير الخارجية الفرنسي الى تطمين بأن بريطانيا لن تغزو سورية دون اعطاء فرنسا اشعاراً مسبقاً. ويبدو أن وزيري الخارجية اتفقا على أن بريطانيا لن تعارض أهداف فرنسا في سورية إذا ما قسمت الامبراطورية العثمانية، ولكن من الأفضل كثيراً ألا تقسم هذه الامبراطورية.

وهكذا سوى وزيرا الخارجية الخلافات بين بلديهما ـ مؤقتاً. لكن رجالهما في الشرق الأوسط واصلوا اثارة المتاعب بين بريطانيا وفرنسا. كذلك فان كيتشنر وأعوانه بسوء فهمهم للمنطقة مضوا يتابعون أهدافاً خطرة أخرى هناك.

(١٦) المرجع نفسه، الصفحتان ٦٩ ـ ٧٠.

الفصل الثالث

كيتشنر ينطلق للسيطرة على الاسلام

(١)

أسـاء كل من الغرب والشرق الأوسط فهم الجانب الآخر طوال معظم القرن العشرين، ولعل الكثير من سوء الفهم هذا عائد الى المبادرات التي اتخـذهـا اللورد كيتشنر في السنوات الأولى للحرب العالمية الأولى. ان خصائص شخصيته، وعيوب فهمه للعالم الاسلامي، والمعلومات الخاطئة التي كانت ترده بانتظام من أعوانه في القاهرة والخرطوم، واختياره للسياسيين العرب الذين رأى التعامل معهم، هذه كلها ألقت بظلالها على مجرى الأحداث السياسية منذ ذلك الحين.

ولفهم الطابع الجديد لأسلوب كيتشنر في التعامل مع شؤون الشرق الأوسط، لا بد لنا من أن نتذكر انه عندما دخلت الامبراطورية العثمانية الحرب العالمية الأولى لم يكن في نية اسكويث وغراي وتشرشل أن يردوا على دخولها الحرب باستيلاء بريطانيا على أيٍ من المناطق الخاضعة لسيـطرتها. كانوا يرون فعلاً أن تسمح بريطانيا لحلفائها بالحصول على مكاسب اقليمية في أوروبا وآسيا الصغرى على حساب تركيا، ولكن بريطانيا في زمن رئيس وزرائها اسكويث لم تكن لها أهداف اقليمية لذاتها في الأراضي العثمانية، سواء في الشرق الأوسط أو في أي مكان آخر. أما كيتشنر فكان يرى أن لبريطانيا مصلحة حيوية في الاستيلاء على جانب كبير من الامبراطورية العثمانية، وهو يقصد أجزاءها الناطقة باللغة العربية، بعد انتهاء الحرب، وكان هذا يعني تراجعاً كاملاً عن سياسة بريطانيا التقليدية.

لقد كان كيتشنر، شأنه شأن معظم البريطانيين الذين عاشوا في الشرق، يعتقد أن الدين في العالم الاسـلامي مسـؤول عن كل شيء. ولكن بدا أن الفيلد مارشال وزملاءه في القاهرة والخرطوم اعتقدوا اعتقاداً خاطئاً أن الاسلام هو تكوين ذو نظام مركزي الحكم فيه لفرد أو لنخبة. وقد اعتبروا الاسلام كياناً فرداً وكأنه منظمة. واعتقدوا أيضاً أن المسلمين يطيعون قادتهم. فقد سبق قبل ذلك بقرون أن استطاع كورتز السيطرة على المكسيك عن طريق القبض على امبراطور

الآرتـك. وفي القـرون الوسطى حاول ملوك فرنسا أن يسيطروا على العالم المسيحي بواسطة الاحتفاظ بالبابا أسيراً في أڤينيون. وبهذه الروح اعتقد كيتشنر وزملاؤه أن الاسلام يمكن شراؤه أو استغلاله أو التحكم به عن طريق شراء أو استغلال أو التحكم بقيادته الدينية. وقد استمالتهم الفكرة القائلة ان من يسيطر على شخص الخليفة يسيطر على الاسلام.

كانت في لب تحليـل كيتشنـر القناعة بأن الخليفة قد يدفع بالاسلام ضد بريطانيا. وبما أن المسلمين السنة (الذين كانت لهم الغالبية بين مسلمي الهند) كانوا يعتبرون السلطان التركي خليفة المسلمين فقد رأى كيتشنر في ذلك تهديداً مستمراً. وكان الاعتقاد في القاهرة والخرطوم في عام ١٩١٤ أن الخليفة صار في قبضة اليهود والالمان. ومما كان يقلق وزير الحربية البريطاني أن يصبـح الخليفـة بمجرد كسب الحرب العالمية، أداة في أيدي مزاحمي بريطانيا في الشرق الأوسط ولا سيما روسيا.

لقد اعتقد كيتشنر أن الخلافة إذا كانت في أيدي أعداء بريطانيا قد تستخدم لتقويض مركز بريطانيا في الهند ومصر والسودان. وقد كانت بريطانيا تحكم أكثر من نصف مسلمي العالم[1]. ففي الهند وحدها كان نحو سبعين مليون مسلم، والمسلمون يؤلفون جزءاً كبيراً بلا تناسب من الجيش الهندي. وكانت بريطانيا تحكم ملايين من المسلمين الآخرين في مصر والسودان في جوار قنـاة السويس التي تمثل الطريق البحرية الى الهند. وكانت حاميات بريطانية صغيرة تتولى الحفاظ على الأمن بين هذه العشرات من الملايين من سكان البلاد الأصليين، ولكن كيتشنر كان يعرف أن هذه الحاميات لا تستطيع مجرد البدء بالتعامل مع الثورة إذا نشبت ثورة.

لقد كان هاجس التصور البريطاني هو التمرد الهندي (١٨٥٧ ـ ١٨٥٩) ذلك التمرد الغامض الذي أشعل ناره الدين، والذي أسقط حكم شركة الهند الشرقية. وبعد ذلك بكثير كانت انتفاضة السودان التي قضى عليها كيتشنر ببراعة، وكان محرك هذه الانتفاضة زعيم ديني جديد سمى نفسه المهدي وهو لقب ترجمه الأوروبيون الى كلمة «المسيح». ثم ان القلاقل الاسلامية في مصر بين عامي ١٩٠٥ و١٩٠٦ سببت قلقاً عميقاً لبريطانيا. إن امكانية قيام حرب مقدسة اسلامية ضد بريطانيا كانت بالنسبة لكيتشنر وحاشيته كابوساً يقضّ مضاجعهم.

لقـد أعـطى جون بوتشـان مدير الاعلام، هذه المخاوف شكلاً روائياً في روايته التي صدرت عام ١٩١٦ بعنوان العباءة الخضراء، وفي هذه الرواية تستخدم ألمانيا نبياً مسلماً مزعوماً في خطة لتدمير الامبراطورية البريطانية إذ يظهر النبي المزعوم في تركيا بعد نذرٍ تنبىء بظهوره فتكون هناك نبوءة قديمة ويكون هناك نزول وحي عصري، ثم تتضح المنطقة التي ينوي اشعال نار الثورة فيها إذ يقول: «ثمة ريح جافة تهب عبر الشرق، والهشيم ينتظر شرارة. ان الريح تهب باتجاه الحدود الهندية»[2].

(١) **الموسوعة البريطانية**، الطبعة الثانية عشر: الحرب العالمية.

(٢) جون بوتشان، **العباءة الخضراء** (نيويورك، غروسيت ودانلوب، ١٩١٦)، ص ١٧٠.

لقد اعتقد كيتشنر أنه يمكن بأقوال أو أفعال زعماء دينيين اسلاميين أخر، الحد من أثر دعوة يوجهها الخليفة الى حمل السلاح ضد بريطانيا خلال حرب عام ١٩١٤، ولكن بعد أن تربح بريطانيا الحرب سيتطلب الأمر عملاً أكثر حسماً. وسبب اعتقاده هذا هو اعتقاده الآخر بأنه من المؤكد أن تستولي روسيا بعد كسب الحرب على القسطنطينية وعلى الخليفة ما لم يتم عمل شيء ما في هذا الصدد. وكان كيتشنر يرى أن خليفة خاضعاً لسيطرة ألمانيا هو مجرد خليفة خطر سيحاول أن يثير القلاقل في الهند لافقاد بريطانيا توازنها في الحرب الأوروبية. ولكنه كان يرى في خليفة خاضع للسيطرة الروسية خطراً قاتلاً للامبراطورية البريطانية، إذ أن كيتشنر (خلافاً لأسكويث وغراي) كان يعتقد أن روسيا لا تزال تبيت طموحات الى انتزاع الهند من بريطانيا. وكانت وجهة نظر كيتشنر أن ألمانيا دولة معادية في أوروبا وأن روسيا دولة معادية في آسيا: والمفارقة في حرب عام ١٩١٤ التي كانت فيها بريطانيا وروسيا حليفتين هي أن بريطانيا إذا ربحت في أوروبا تجازف بالخسارة في آسيا. كانت نتيجة الحرب الوحيدة التي تنال رضى كيتشنر التام هي أن تخسر ألمانيا الحرب من دون أن تربحها روسيا - ولم يكن واضحاً في عام ١٩١٤ كيف يمكن أن يتحقق ذلك. ولهذا خطط وزير الحربية لأن تكون بريطانيا صاحبة الضربة الأولى في الصراع الذي توقعه مع روسيا بعد الحرب من أجل السيطرة على طريق الهند وعلى الهند نفسها.

كان اقتراح كيتشنر أن تلجأ بريطانيا بعد الحرب الى تدبير ليكون مرشحها هو الخليفة. وبما أن النبي محمداً ولد في شبه الجزير العربية فقد رأى كيتشنر تشجيع الرأي القائل أن الخليفة يجب أن يكون من شبه الجزيرة العربية. وقد رأى ميزة في ذلك هي سهولة سيطرة الأسطول البريطاني على ساحل شبه الجزيرة العربية، وبذلك تستطيع بريطانيا أن تعزل الخليفة عن نفوذ منافسيها الأوروبيين. واعتقد كيتشنر أنه ما ان تتمكن بريطانيا من تنصيب خليفة داخل محيط نفوذها في شبه الجزيرة العربية حتى تتمكن من التحكم بالاسلام. وكان أعوان كيتشنر حتى قبل دخول الامبراطورية العثمانية الحرب قد نبهوه الى أن أمير مكة، وهو مرشح عربي للخلافة لا تخطئه العين، كان قد أجرى اتصالاً معه.

(٢)

في نهاية صيف عام ١٩١٤ أو نحو ذلك، ومع دنوّ بداية الحرب العثمانية، استذكر جلبرت كلايتون، أن عبدالله، الابن الأثير الى نفس الشريف الحسين، شريف مكة، سبق له أن زار القاهرة قبل ذلك ببضعة شهور وأوحى أن شبه الجزيرة العربية قد تكون ناضجة للثورة. كان عبدالله آنذاك يشعر بخوف من أن تكون جماعة تركيا الفتاة على وشك التحرك ضد والده، وكان عبدالله الذي يخفي شكله الهادىء ذكاء وجرأة يبحث عن دعم من الخارج. ولكن بعد ذلك بوقت قصير سوّى والده والباب العالي خلافاتهما بحيث انتفت الحاجة الى المساعدة البريطانية.

وليس هناك حتى وقتنا الراهن ما يثبت ماذا قال عبدالله في القاهرة وماذا قيل له. والظاهر أن

عبدالله التقى اللورد كيتشنر أول مرة في القاهرة عام ١٩١٢ أو ١٩١٣، والتقاه مرة أخرى في القاهرة في شباط (فبراير) ونيسان (ابريل) من عام ١٩١٤، والتقى أيضاً رونالد ستورز. ويبدو أنه طلب تأكيدات من بريطانيا بالمساعدة إذا ما سعى الباب العالي للإطاحة بوالده، وأن كيتشنر، الذي استوضح بالتفصيل عن الصعوبات في شبه الجزيرة العربية، قد نفى في ذلك الحين وجود أي اهتمام بالتدخل في الشؤون العثمانية الداخلية. ولعل عبدالله كان أقل تأثراً بما سمعه عن عدم الاهتمام بالتدخل مما سمعه من تعبير عن القلق[٣].

والظاهر أن عبدالله ادعى ـ كاذباً ـ أمام ستورز أن الزعماء المنافسين لوالده في شبه الجزيرة العربية مستعدون للسير خلف والده في معارضة مخططات الباب العالي. وقد اقترح علاقة مستقبلية بين شبه الجزيرة العربية وبريطانيا على غرار العلاقة بين افغانستان وبريطانيا التي تمارس بموجبها افغانستان الحكم الذاتي داخلياً بينما تدير بريطانيا جميع العلاقات الخارجية. ومع أن الفكرة راقت ستورز فانه، شأنه شأن رئيسه، لم يستطع أن يقدم لعبدالله التشجيع الذي كان ينشده[٤].

صحيح أن كثيرين من أمراء شبه الجزيرة العربية كانوا في نزاع مع قيادة حزب تركيا الفتاة في القسطنطينية منذ سنين، ولكن جلبرت كلايتون عجز عن معرفة مدى التنابذ بينهم بسبب خلافات دينية وعائلية وخلافات أخرى. وربما كان المهاجرون الناطقون بالعربية الذين لجؤوا الى القاهرة والذين التقاهم، قد ضللوه في هذا الصدد. وحقيقة الأمر أن ما من أمير من أمراء شبه الجزيرة العربية كان مستعداً لقبول أي من الأمراء الآخرين زعيماً له.

كان بارزاً بين الناطقين بالعربية المنفيين الى القاهرة الذين تحدث اليهم كلايتون ضابط سابق في الجيش العثماني وسياسي من جمعية الاتحاد والترقي يدعى عزيز علي المصري، وهو من أصل شركسي وقد ولد ونشأ في مصر وانتسب الى المدرسة الحربية في الامبراطورية العثمانية. وبعد خدمته العسكرية في الميدان برز باعتباره أحد قادة حزب تركيا الفتاة. غير انه كان مجرد ضابط برتبة رائد ملحق بالأركان العامة، بينما كان أنور زميله في الصف والذي كان المصري يزدريه قد أصبح وزيراً للحربية. وكان رد المصري، بدافع شعور الاستياء، هو تنظيم جمعية العهد، وهي جمعية سرية صغيرة من ضباط الجيش الذين اعترضوا على السياسة المركزية التي كانت تطبقها جمعية الاتحاد والترقي ويعترضون على عدم إعطاء هذه الجمعية الناطقين بالعربية حصتهم العادلة من المناصب الرفيعة. وكان ضباط جميعة العهد كلمة واحدة في معارضتهم لسياسات التتريك التي تبنتها جمعية الاتحاد والترقي، فينادون إما بإعطاء السكان الناطقين بالعربية حصة أكبر في السلطة في الحكومة المركزية أو تطبيق اللامركزية واعطاء هؤلاء السكان قدراً أكبر

---

(٣) ك. ارنست دون، **من العثمانية إلى العروبة: مقالات عن اصول القومية العربية**، (اوربانا، وشيكاغو ولندن: مطبعة جامعة ابلينوي، ١٩٧٣)، الصفحات ٥٤ ـ ٦٨.

(٤) السرد الوارد في نص الكتاب يقتفي اثر كتاب ايلي خضوري، في: **المتاهة الانكليزية ـ العربية مراسلات مكماهون ـ الحسين ومترجموها ١٩١٤ ـ ١٩٣٩** (كامبردج، مطبعة جامعة كامبردج، ١٩٧٦)، ص ٤ ـ ١١.

من الحكم الذاتي على الصعيد المحلي، أو كلا الأمرين[٥].

كان أنور باشا هو المسؤول عن اصدار الأمر باعتقال الرائد المصري وإدانته بتهم ملفقة في مطلع عام ١٩١٤. وهكذا وجد الرائد المصري نفسه يؤدي مكرهاً دور ثوري عربي - ونقول مكرهاً لأنه كان يطمح الى الزعامة في الامبراطورية العثمانية بكاملها لا في جزء منها فقط. واستجابة للرأي العام في القاهرة توسط اللورد كيتشنر للرائد المصري، ونتيجة لهذه الوساطة دبر جمال باشا إصدار عفو عنه ونفيه الى بلده الأصلي مصر. ان عزيز المصري المعارض منذ طفولته للحكم البريطاني في مصر، والمناوىء لبريطانيا، والموالي لألمانيا، والمؤيد للامبراطورية العثمانية معارضاً حكومتها فقط، والسياسي العسكري الذي عد حفنة فقط من زملائه ضمن مؤيديه، قد أخطأ فهمه ضباط المخابرات البريطانية فاعتبروه خطأً ذا سطوة وحليفاً محتملاً.

ويبدو أن المصري زار مقر المعتمد البريطاني في القاهرة في مطلع شهر أيلول (سبتمبر) ١٩١٤ والتقى كلايتون[٦]. وكان المصري يعرف أن عبدالعزيز بن سعود وغيره من زعماء شبه الجزيرة العربية كانوا يفكرون بالثورة على الباب العالي. ولعله نقل ذلك إلى كلايتون، ولعل كلايتون تذكر زيارة عبدالله وما قاله لكل من ستورز وكيتشنر.

عقب لقائه مع المصري اجتمع كلايتون مع رونالد ستورز ورتب له كي يرسل مذكرة سرية الى اللورد كيتشنر. كانت مذكرة كلايتون ضمن رسالة كان على ستورز أن يرسلها الى رئيسه السابق بشأن موضوع بريء هو موضوع الجمال.

(٣)

كان أحد الأمور التي تسبب قلقاً عاماً لبريطانيا عام ١٩١٤ هو أن تشن الامبراطورية العثمانية، إذا ما دخلت الحرب، هجوماً على قناة السويس. وعلى غرار تفكير مسؤولي وزارات الحربية في أوروبا الذين كانوا يحللون القدرة العسكرية للبلدان المعادية المجاورة بمقاييس منشآت السكك الحديدية، ركّز رونالد ستورز انتباهه على ما تستطيع القوات العثمانية أن تحصل عليه من الجمال. وقد كتب في رسالته الى كيتشنر يقول ان الجيش العثماني سيعتمد في الحصول على حاجته من الجمال على مربي الجمال في المنطقة الغربية من شبه الجزيرة العربية، أي الحجاز، واقترح ستورز تشجيع أمير مكة على الامتناع عن تسليم الجمال.

كانت الرسالة المتعلقة بالجمال مجرد غطاء، ومعها بعث ستورز مذكرة كلايتون السرية المؤرخة ٦ أيلول (سبتمبر) ١٩١٤ الى كيتشنر، يحثه فيها على الدخول في محادثات مع أمير مكة لأغراض

(٥) مجيد خضوري، «عزيز علي المصري والحركة القومية العربية»، في: كتاب البرت حوراني، **شؤون شرق أوسطية: رقم أربعة، أوراق سانت انطوني رقم ١٧** (لندن: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٦٥)، الصفحات ١٤٠ - ١٤٣.

(٦) هـ. ف. ف. وينستون، **المغامرة غير المشروعة** (لندن: جوناثان كيب، ١٩٨٢)، ص ٣٨٠.

أخرى. إحدى المسائل التي أثارها كلايتون في المذكرة كانت امكانية حلول زعيم من شبه الجزيرة العربية صديق لبريطانيا محل السلطان العثماني في مركز خليفة المسلمين. فإذا كان ذلك ممكناً فإن أمير مكة، حارس الأماكن المقدسة الاسلامية هو المرشح بوضوح لهذا المركز، لا سيما انه في وضع يتيح له أن يقدم لبريطانيا مساعدة هامة في موضوع الحج، باعتبار أن الحج فريضة على من استطاع اليه سبيلاً من المسلمين مرة واحدة على الأقل في حياته. ولكن الحرب العالمية حالت دون أداء فريضة الحج وخصوصاً في عام ١٩١٥. وحتى إذا افترضنا أن مسلمي الهند مستعدون أن يغفروا لبريطانيا دخولها الحرب ضد الدولة الاسلامية المستقلة الوحيدة ذات الشأن، فالشك كبير في أن يغفروا لها انقطاع طريق الحج الذي له دورٌ كبيرٌ في حياتهم.

ولما كانت الأماكن المقدسة في مكة والمدينة المنورة ضمن الحجاز، فان من يحكم الحجاز هو في وضع للحفاظ على حق المسلمين البريطانيين في مواصلة أداء الحج بالرغم من الحرب. واضافة الى أن أمير مكة يحكم الحجاز فادعاؤه أنه من سبط النبي يجعله في وضع القادر على تولي مركز الخلافة.

لقد اخطأ كلايتون خطأً جسيماً عندما أكد في مذكرته السرية أن زعماء شبه الجزيرة العربية المتنافسين ـ أي حاكمي عسير واليمن وكذلك ابن سعود وربما أيضاً ابن الرشيد أمير نجد ـ سيتكاتفون مع أمير مكة للعمل من أجل أن تكون «شبه جزيرة العرب للعرب»[٧]. ومما جاء في مذكرة كلايتون أن هذه الحركة تلقى التشجيع من الخديوي، الحاكم الاسمي لمصر تحت إمرة السلطان، وكان الخديوي أيضاً يعتبر نفسه مرشحاً لأن يخلف السلطان في مركز خليفة المسلمين. وليس واضحاً كيف كان كلايتون ينوي أن يوفق بين المطامح المتضاربة لهذه المجموعة المتعددة الأهواء.

إن الادعاء بأن سائر الزعماء المنافسين سيتحدون خلف أمير مكة هو ادعاء كان عبد الله قد تقدم به نيابة عن والده في محادثاته مع رونالد ستورز قبل ذلك بنحو خمسة شهور. وإذ عرضه كلايتون على أنه معلومة جديدة، فربما كان يشير الى أن هذه المعلومة قد أكدها له مؤخراً عزيز المصري أو شخصية عثمانية أخرى من الشخصيات التي تعيش في المنفى. والأمر الجديد في المذكرة يكمن في الايحاء أن سكان شبه الجزيرة العربية يمكنهم أن يؤدوا خدمة لبريطانيا خلال الحرب وليس بعدها فقط.

وقد أرسل كيتشنر رده فوراً فأبرق الى القاهرة بتاريخ ٢٤ أيلول (سبتمبر) ١٩١٤ مصدراً أوامره الى ستورز أن يبعث برسول يثق به الى عبد الله ليطرح عليه سراً سؤالاً مفاده: هل ستكون الحجاز مع بريطانيا أم ضدها في حال نشوب حرب؟ وقبل أن يرسل كيتشنر برقيته أخذ موافقة سير ادوارد غراي عليها. وقد أعجب غراي بمذكرة كلايتون ووصفها بأنها «هامة جداً»[٨].

(٧) كدوري، **المتاهة الانكليزية ـ العربية**، الصفحتان ١٣ ـ ١٤.

(٨) المرجع نفسه، ص ٢٥.

عاد الرسول بعد بضعة أسابيع من رحلته الى شبه الجزيرة العربية الخاضعة للامبراطورية العثمـانية بجواب غامض ولكنه مشجع، يهيب بوزير الحربية البريطاني أن يبين ما يدور في ذهنه. عندئذٍ أبرقت القاهرة الى كيتشنر تقول «الرسالة متحفظة ولكنها ودية وإيجابية»[٩].

في هذه الأثناء كان مقر المعتمد البريطاني قد أجرى اتصالاً جديداً مع الرائد عزيز المصري ومع غيره من المهاجرين العرب في القاهرة. أما هؤلاء العرب المنفيون من الامبراطورية العثمانية فقد تابعوا البحث الذي كان مستمراً منذ عقود من السنين في موضوع من هي الشعوب الناطقة بالعربية في الامبراطورية العثمانية أومن يجب أن تكون. ومسألة الهوية الوطنية هذه كانت مدار أحاديث تجري في مقاهي دمشق وبيروت وفي أوساط الطلبة في باريس منذ القرن التاسع عشر، مما أدى الى نشوء أندية أدبية وجمعيات سرية متنوعة ضمن الامبراطورية العثمانية.

في سياق السياسة العثمانية كان العرب المنفيون في القاهرة يردون على سياسات حكومة حزب تركيا الفتاة التي كانت تخضع غالبية سكان الامبراطورية العثمانية الى هيمنة نحو أربعين بالمئة من السكان ينطقون بالتركية. ان ما كان ينادي به هؤلاء المنفيون بشكل أو بآخر هو أن يكون للناطقين بالعربية رأي أكبر في الشؤون الحكومية وعدد أكبر وأرفع من المناصب الحكومية ـ أي أن تكون لهم النسبة المئوية عينها التي حصل عليها الناطقون بالتركية.

ومـع أن هؤلاء الرجـال كثـيراً ما كانـوا يوصفـون أنهم قوميون فالوصف الأدق أنهم كانوا انفصاليين[١٠]. فهم لم يطالبوا بالاستقلال بل طالبوا بقدر أكبر من المشاركة ومن الحكم المحلي وكانوا راضين بأن يكون الحكم الى حد كبير حكماً تركياً لأن الأتراك مسلمون. وهم، خلافاً لما كان عليه القوميون الأوروبيون، أناس معتقداتهم قائمة في إطارٍ دينيٍ أكثر مما هي قائمة في إطار علماني. فقد كانوا يعيشون ضمن أسوار مدينة الاسلام بمعنى لم ينطبق على طريقة عيش أوروبا ضمن العالم المسيحي منذ مطلع العصور الوسطى. ذلك أنه على غرار المدن التي شيدت في العالم العربي في العصور الوسطى كانت حياة المسلمين تقع ضمن دائرةٍ نقطة المركز فيها هي المسجد. ولم يكونوا يمثلون جماعة أثنية إذ أن العرب «الحقيقيين» الوحيدين تاريخياً هم سكان شبه الجزيرة العربية، في حين أن السكان الناطقين بالعربية في ولايات مثل ولاية بغداد أو دمشق، أو في مدن مثل الجزائر أو القاهرة، كانوا خليطاً في أصولهم وخلفياتهم، وكان هذا الخليط واسع النطاق يشمل شعوباً وثقافات قديمة تمتد من المحيط الأطلسي الى الخليج الفارسي.

لم يكن هنـاك سوى بضع عشرات من الأشخاص الذين كانوا منافحين نشيطين عن القومية العـربية (أي الانفصال) باعتبارهم أعضاء في واحدة أو أكثر من الجمعيات السرية كجمعية

(٩) المرجع نفسه، ص ١٧.

(١٠) زين ن. زين، **انبثاق القومية العربية مع خلفية مؤلفة من دراسة للعلاقات العربية ـ التركية في الشرق الأدنى** (بيروت: خياط، ١٩٦٦).

الفتاة وجمعية العهد التي أخذت السلطات البريطانية في القاهرة تزداد تعرفاً اليها[11]. ونحن الآن نعرف عن هؤلاء الرجال وما كانوا يمثلونه أكثر كثيراً جداً مما كان يعرفه البريطانيون آنذاك. فقد كانوا بصورة رئيسة أعضاء في النخبة العربية التي كانت على علاقة حسنة بالنظام الذي أطاح به حزب تركيا الفتاة وشعروا بخطر سياسة التتريك وميول المركزية لدى جمعية الاتحاد والترقي[12]. وبينما كان كيتشنر يفكر بمضمون رسالته التالية الى شبه الجزيرة العربية أبرق اليه ميلن تشيثام القائم بأعمال المعتمد البريطاني والقنصل العام في القاهرة بمذكرة استخبارية عن الجمعيات السرية.

(٤)

ان برقية كيتشنر، التي أقرها غراي وأرسلها من وزارة الخارجية طلبت الى مقر المعتمد البريطاني إبلاغ ستورز أن يرسل جواباً الى عبدالله يقول فيه انه: «إذا ساعدت الأمة العربية انكلترا في هذه الحرب التي فرضتها عليها تركيا، ستضمن انكلترا عدم حدوث تدخل داخل شبه الجزيرة العربية وستقدم للعرب كل مساعدة ضد العدوان الخارجي». (كان كيتشنر يعني بكلمة «العرب» أولئك الذين يعيشون في شبه الجزيرة العربية). بعبارة أخرى إذا حرر زعماء شبه الجزيرة العربية شبه جزيرتهم من السلطان العثاني وأعلنوا استقلالهم ستساعدهم بريطانيا على حماية انفسهم ضد أي غزوٍ من الخارج.

في مقر المعتمد البريطاني كانت مسؤولية الاشراف على ترجمة هذه الرسالة الى اللغة العربية تقع على عاتق تشيثام وستورز. ويبدو أنهما، بتشجيع من كلايتون، قد توسعا في لغة الرسالة بحيث صارت تتضمن تعهداً بتأييد بريطانيا «لخلاص العرب»[13]. وهذا كان توجهاً يسير الى حد بعيد في الاتجاه الذي رسمه رجينالد وينغيت. فقد كان وينغيت يؤمن بتحريض القبائل في شبه الجزيرة العربية لمصلحة بريطانيا، وخلافاً لكيتشنر الذي كان يرى معالجة موضوع شبه الجزيرة العربية عند نهاية الحرب، كان وينغيت نافد الصبر ويحث على عمل فوري منذ بداية الحرب، وهدفه إغراء العرب بالابتعاد عن الامبراطورية العثمانية، وقد كتب الى كلايتون بتاريخ ١٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ قائلاً: «أخشى أن يكون العمل البريطاني قد تأخر طويلاً حتى اني بدأت أشك في امكانية نجاحنا الآن في فصل العرب عن العثمانيين»[14]. لقد كانت شكواه المألوفة هي أن رؤساءه لا يلقون بالاً الى نصيحته في الوقت المناسب.

---

(١١) دون، **العثمانية**، ص ١٥٢.

(١٢) البرت حوراني، **انبثاق الشرق الأوسط الحديث** (بيركلي، لوس انجلس ولندن، مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٨١)، الصفحات ١٩٣ ـ ٢١٥.

(١٣) جورج انطونيوس، **يقظة العرب: قصة الحركة القومية العربية** (نيويورك: كتب كامبريكورن، ١٩٦٥)، ص ١٣٣، وكدوري، **المتاهة الانكليزية ـ العربية**، ص ١٩.

(١٤) جامعة دورهام «محفوظات وثائق السودان. أوراق جيلبرت كلايتون» ٤٦٩/٨.

وبينما كانت رسالة كيتشنر ترسل الى مقصدها بالترجمة العربية كانت جماعات المهاجرين التي ظل كلايتون على اتصال بها في القاهرة قد أبلغته كما يبدو، أن عرب الحجاز سوف تساورهم الشكوك في نيات بريطانيا، وأن توضيحاً ما لما تعد به بريطانيا سيكون أمراً حسناً. وعلى الأثر فوض كيتشنر، بموافقة غراي، مقر المعتمد البريطاني، بإصدار بيان جديد. ومرة أخرى تجاوز مقر المعتمد التعليمات التي تلقاها فأصدر بيانات ليست موجهة الى شبه الجزيرة العربية فحسب، بل موجهة عملياً الى كل آسيا الناطقة بالعربية (فلسطين وسورية وبلاد الرافدين) قاطعة وعداً بأن تعترف بريطانيا باستقلال سكان هذه البلدان وتضمنه إذا ما انقلبوا على الأتراك(١٥).

ومع أن مقر المعتمد البريطاني تجاوز التعليمات بإصدار هذا العرض العلني، فإن التعهد في حد ذاته كان معقولاً. ذلك أن بريطانيا لم تكن بعد قد تقدمت الى الدول الحليفة بأي التزام مناقض في ما يتعلق بمستقبل آسيا الناطقة بالعربية. فإذا ما وجهت الولايات الناطقة بالعربية، تجاوزاً لكل الاحتمالات، ضربة كبرى لصالح قضية الحلفاء تتمثل في الانفصال عن الامبراطورية العثمانية والظفر بحريتها بجهودها الخاصة، فلا يبقى عند بريطانيا سبب يحول دون ضمانها مساعدة هذه الولايات في حماية استقلالها المقبل. بل سيكون في مصلحة بريطانيا الوطنية أن تفعل ذلك سواء في ما يتعلق بالمنافسات في زمن الحرب أو بالمنافسات بعد الحرب.

على أن الرسالة التي سمح كيتشنر بإرسالها كانت مثيرة للمتاعب، إذ أنه ـ ترتيباً على اعتقاده بأن شبه الجزيرة العربية هامة ليس فقط بسبب الدور الذي يمكن أن تؤديه خلال الحرب بل الدور الذي يمكن أن تؤديه بعد الحرب ـ قد ختم رسالته الى مكة بقنبلته المدوية التالية: «قد يحدث أن يتولى عربي أصيل الخلافة في مكة أو المدينة، وبذلك قد ينتج بعون الله، الخير من كل هذا الشر الذي يحدث الآن»(١٦). لقد كانت إعادة الخلافة إلى شبه الجزيرة العربية حيث منشؤها ومولد النبي محمد، هي استراتيجية كيتشنر التي رسمها استعداداً للمنافسة مع روسيا التي لا بد أن تعقب انتهاء الحرب ضد ألمانيا. ولكن أنّى للعرب الذين كانوا يعيشون في الاطار السياسي لشبه جزيرتهم أن يفهموا ما كان يدور في ذهن كيتشنر. وأنى لهم أن يعرفوا أنه ما ان بدأ صراع كبير بين الدول الأوروبية حتى بدأ التفكير مسبقاً بالصراع اللاحق. بل كان الأرجح ألا يدركوا أن كيتشنر ووينغيت وكلايتون وستورز كانوا قاصرين عن فهم طبيعة الخلافة.

ما برح الباحثون منهمكين منذ ذلك الحين في إعطاء شروح للغربيين الذين يدرسون الشرق الأوسط مفادها أن الانشقاق بين السلطتين الدنيوية والروحية، الذي وضع البابا في مواجهة الامبراطور في أوروبا القرون الوسطى، ليس له وجود في العالم الاسلامي. لقد أخطأ كيتشنر ووينغيت وكلايتون وستورز في اعتقادهم أن الخليفة يمكن أن يكون زعيماً روحياً فقط. ذلك أن

(١٥) كدوري، **المتاهة الانكليزية ـ العربية**، ص ٢٢.
(١٦) المرجع نفسه، الصفحتان ١٧ ـ ١٨.

الحيـاة كلهـا في الاسلام بما فيها الحكومة والسياسة تقع في نطاق حكم الشريعة بحيث أن المسلمين السنّة، والسلطان العثماني وأمير مكة منهم، يرون أن سلطة الخليفة بصفته حامي الشريعة هي سلطة شاملة. ان ما أغفله البريطانيون في القاهرة هو أن الخليفة أمير أيضاً: أي انه حاكمٌ وقائدٌ في المعركة مثلما هو إمام في الصلاة.

ان أتباع كيتشنر، بالرغم من كل معرفتهم المفترضة بالعالم الاسلامي، قد فاتتهم أهمية نقطة أخرى: لقد جهلوا مدى انقسام المسلمين وشرذمتهم. كانت خطة كيتشنر تدعو ابن سعود زعيم الطائفـة الوهّـابية الشرسة، الى الاعتراف بالسلطة الروحية لحاكم مكة السنّي. وما كان هذا الاعتراف ممكناً من الناحية الواقعية لأن الوهّابيين والسنّة، شأنهم شأن العشرات من المذاهب المتنافسة التي ينقسم اليها الاسلام، كانوا على خلاف شديد.

إن الاقتراح الذي أرسله كيتشنر وأتباعه الى مكة قد ضلل متلقيه الذي رأى فيه عرضاً بجعله حاكم مملكة واسعة، إذ أن ذلك بطبيعة الحال سيكون خليفة المسلمين الجديد. وسنرى أنه عنـدما فتح حاكم مكة باب البحث في ما ستكون عليه حدود مملكته الجديدة أصيب ستورز بالفزع. إذ أنه هو وكيتشنر لم يخطر لهما توسيع المنطقة التي سيحكمها أمير مكة. وفي صيف عام ١٩١٥ كتب ستورز الى فيتز جيرالد/كيتشنر قائلاً انه إذا استطاع حاكم مكة أن يهدىء خواطر الأمراء والشيوخ الآخرين الحاكمين في شبه الجزيرة العربية وأن يقنعهم بأنه «لا يفكر بالمطالبة بأية حقوق دنيوية ضمن مناطقهم، فان حظوظه في اعتراف عام ـ ولو انه غير شامل ـ به كخليفة ستكون جيدة»[١٧].

لقـد كانت نيـة البريطانيين أن يؤيدوا ترشيح الشريف حسين لمنصب «بابا» الاسلام ـ وهو منصب (غير معروف لهم) ولذلك فلا وجود له. في حين أن اللغة التي استخدمها البريطانيون (وهذا ما كان مجهولاً لديهم أيضاً) قد شجعته على محاولة أن يصبح حاكم العالم العربي كله ـ مع أن ستورز كان في الحقيقة يعتقد أن الشريف حسين يخطىء إذا وضع نصب عينيه أن يوسع نطاق حكمه. ولقد كان من شأن كيتشنر وأعوانه أن يصابوا بالذهول عندما يعرفون ما كان لرسالتهم من دلالة عند المسلمين في شبه الجزيرة العربية.

(١٧) كيو، مكتب السجلات العامة. أوراق كيتشنر ٣٠/٥٧ ٤٧ الوثيقة ق.ق ٣٨.

الفصل الرابع

الهند تحتج

الهند تحتج

(١)

لم يطلع آرثر هيرتزل، سكرتير الدائرة السياسية في وزارة شؤون الهند، على رسائل كيتشنر الى الشريف حسين حتى ١٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٤ ـ أي بعد وصولها إلى مكة. وقد أصابه رعب، وسارع الى توجيه النقد الى «مراسلات بالغة الخطر» لأن بتلميحها الى خلافة عربية «تفعل الشيء عينه الذي فهمت هذه الوزارة أن حكومة صاحب الجلالة لن تقدم على فعله»[١]. وقد قال اللورد كرو وزير الدولة لشؤون الهند في حديث خاص مع نائب الملك في الهند، ان كيتشنر يرفض الانتباه الى أن المكانة الروحية للخليفة الحالي ـ أي السلطان التركي ـ لم يمسها سوء، وأن مسلمي الهند، الذين يبجلونه، لن يقبلوا بديلاً يحل محله نتيجة لتدخل أجنبي، هذا إذا قبلوا بإبداله أصلاً[٢].

ولدى رؤية هيرتزل تعهد كيتشنر بحماية الاستقلال العربي احتج قائلاً ان هذ التعهد «وثيقة تمثل البداية» وأنه «ضمانة أعطيت كتابة من دون تفويض من حكومة جلالة الملك»[٣]. وقد دعمت احتجاج هيرتزل مذكرة سبق أن أرسلتها دائرة الشؤون الخارجية في حكومة الهند الى وزارة شؤون الهند في لندن بتأييد من حكام عدن وبومباي وأماكن أخرى، وتقول هذه المذكرة: «ما نريده ليس شبه الجزيرة العربية موحدة، بل نريدها مقسمة وضعيفة، ممزقة الى امارات صغيرة خاضعة الى أقصى ما يمكن لسيطرتنا ـ ولكنها عاجزة عن القيام بعمل منسق ضدنا، وتشكل

---

(١) ايـلي كدوري، في المتـاهة الانكليزية ـ العربية: مراسلات مكماهون ـ الحسين وترجموها ١٩١٤ ـ ١٩٣٩ (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٧٦)، ص ٣٠.

(٢) بريتون كوبر بوش، **بريطانيا والهند والعرب، ١٩١٤ ـ ١٩٢١** (بيركلي ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٧١، ص ٦٢.

(٣) كدوري، **المتاهة الانكليزية ـ العربية**، ص ٣٠.

حاجزاً في وجه قوى الغرب»[٤]. لقد دلت هذه المذكرة على خطأ في فهم نيات البريطانيين في القاهرة: يدل على ذلك ما قاله كلايتون لاحقاً في رسالة الى وينغيت: «يبدو أن الهند مسكونة بهاجس الخوف من دولة عربية موحدة وقوية. هذه الدولة لن تظهر الى الوجود ما لم تبلغ بنا الحماقة حد خلقها»[٥].

وقد حاول اللورد كرو ان يهدىء خاطر وزارة شؤون الهند وحكومة الهند بإعطاء تفسير مفاده ان عدم اجراء مشاورات مسبقة بشأن تعهد كيتشنر سببه «ان هذا التعهد هو مراسلة خاصة من قبل اللورد كيتشنر» وليس مراسلة رسمية من قبل حكومة جلالة الملك[٦]. غير ان هذا الخلاف الحقوقي الذي اشتعل لم تطفئه هذه التأكيدات، بل ظل يلتهب طوال الحرب وبعدها.

(٢)

كانت نظرة المؤسسات الرسمية في الهند الى نفسها نظرة قلعة محاطة بالأعداء ممتدة على أرض ضيقة ذات طول بالغ. وكان شعورها الذاتي انه يجب تفادي ارتباطات جديدة، وكانت استراتيجيتها إزاء الشرق الأوسط تقضي بالحفاظ على الحد الأدنى فقط ـ أي الخط الساحلي للخليج من أجل ابقاء الطريق البحرية من بريطانيا واليها مفتوحة ـ ورفض جرها الى المناطق الداخلية.

مع ذلك فإن الحرب غير المرغوب فيها ضد الامبراطورية العثمانية أتاحت لها امكانية ضم البصرة وبغداد القريبتين. وكان الاعتقاد أن خيراً عميماً سينجم عن هاتين الولايتين وعن تنميتهما اقتصادياً، فكان في ذلك إغراء لحكومة الهند، مع أن مسؤوليها طالما حذروا في الماضي من قبول مزيد من المسؤوليات الاقليمية. وكانت الهند البريطانية في كل ما تفعله عازمة على أن توائم بين مصالحها ومصالح رعاياها، وكثيرون منهم مسلمون، غير أن سياسة اللورد كيتشنر الاسلامية شكلت خطراً على هذه المصلحة الحيوية.

وكانت مبادرات كيتشنر أيضاً تمثل تطفلاً في محيط السياسة الخارجية الذي كانت حكومة الهند تحمي فيه حقوقها من افتئات منافسيها في الحكومة البريطانية. فقد كانت دائرة الشؤون الخارجية في حكومة الهند تمارس مسؤولية العلاقات مع مناطق مجاورة كالتيبت، وأفغانستان، وبلاد فارس، وشرقي شبه الجزيرة العربية. وكانت حكومة الهند كذلك تدير الحماية البريطانية على عدن ومشيخات الخليج عبر شبكةٍ من الحكام والمعتمدين المقيمين. ولذلك فإن كيتشنر بدخوله في مباحثات مع حاكم مكة انما كان يتدخل في مجال اختصاص الهند ونشاطها.

---

(٤) بوش، **بريطانيا والهند والعرب**، ص ٦٢.

(٥) كدوري، **المتاهة الانكليزية ـ العربية**، ص ١٢٠.

(٦) المرجع نفسه، ص ٣٠.

ومع أن حكومة الهند كانت منذ زمن طويل تنهج سياسة الاحتفاظ بالموانىء الساحلية على امتداد الطريق البحرية المارة عبر الخليج الى السويس، فقد كانت تتجنب التورط في سياسة المناطق الداخلية. غير أن هذا لم يمنع الكابتن وليم هنري شكسبير، وهو ضابط في الدائرة السياسية الهندية، من إقامة علاقات سياسية وصداقة شخصية، بصفته المعتمد السياسي في الكويت، مع عبدالعزيز بن سعود الذي كان أميراً ذا بأس ونجمه صاعد في وسط شبه الجزيرة العربية، خلال السنوات التي سبقت نشوب الحرب مباشرة[٧]. وقد عبر ابن سعود، كما فعل عبدالله في القاهرة، عن استعداده لكي تصبح امارته دولة زبونة لبريطانيا. فوجد شكسبير نفسه مضطراً، شأنه شأن كيتشنر وستورز، للاشارة الى أن حكومته لم تكن مستعدة للتدخل في أمور محض داخلية تقع في اختصاص العثمانيين. ومما زاد في صحة ذلك آنذاك أن وزارة الخارجية البريطانية دعمت آل الرشيد الموالين لتركيا، علماً أن آل الرشيد كانوا سادة وسط شبه الجزيرة العربية وأعداء آل سعود بالوراثة. ولكن ما ان نشبت الحرب حتى رأت الهند نفسها حرة في دعم صاحبها ابن سعود، انما وجدت في الوقت عينه أن القاهرة كانت تدعم منافسه في مكة.

وقد وجدت القاهرة بدورها أن الهند تعطل مشاريعها. ففي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤، وهو الشهر الذي دخلت فيه الامبراطورية العثمانية الحرب، اقترحت القاهرة (بموافقة سير ادوارد غراي) ارسال الرائد عزيز المصري في حملة لتنظيم الهيجان وربما الثورة في بلاد الرافدين. ولكن الهند الخائفة دائماً من اشعال حريق قد لا تستطيع التحكم به، أبطلت تنفيذ الاقتراح.

كانت الهند تعتقد أنه إذا ما انقلب العرب يوماً على الحكومة التركية فيجب أن يقود هذه الثورة ابن سعود. ولكن في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٤ كانت حجة نائب الملك في الهند أن عملاً كهذا هو عمل سابق لأوانه[٨]. وقد اتخذ كيتشنر وأتباعه في الخرطوم نظرة معاكسة فتطلعوا الى الشريف حسين باعتباره حليف بريطانيا العربي الهام، وأصدروا بيانات تحث العرب على الثورة. وفضلاً عن هذا الاختلاف في الاستراتيجية العامة، كانت سيملا[*] مدركة على أساس اتصالاتها قبل الحرب أن في العالم الناطق بالعربية أناساً من شأن التأييد البريطاني لمطالب أمير مكة أن ينفّرهم من بريطانيا. من هؤلاء الشيخ مبارك في الكويت وهو صديق منذ زمن طويل لبريطانيا، ومنهم أيضاً حاكم مرفأ المحمرة الفارسي، وهو صديق لبريطانيا أيضاً، ومنهم كذلك سيد طالب، ثري البصرة، مع أن هيرتزل كان يعتقد انه «وغد خطر»[٩]. وقد نبه أحد مسؤولي وزارة الخارجية الى العواقب المرتقبة في شبه الجزيرة العربية قائلاً إن عدُوَّيْ أمير مكة ـ ابن سعود والسيد محمد

(٧) هـ. ف. ف. وينستون، **الكابتن شكسبير** (لندن: جوناثان كيب، ١٩٧٦).

(٨) بوش، **بريطانيا والهند والعرب**، ص ٦٠.

(*) اسم سيملا كثيراً ما يعني حكومة الهند، لأن مدينة سيملا كانت العاصمة الصيفية لهذه الحكومة.

(٩) المرجع نفسه، ص ١١.

الادريسي، حاكم عسير ـ هما في نظره صديقان لبريطانيا[١٠].

لقد شدد المسؤولون في الهند على أن سياسات القاهرة متهورة ولا حظّ لها من النجاح. وكان رأي هؤلاء المسؤولين أن رعاية بريطانيا لخلافة عربية لن تؤثر على الرأي العام الاسلامي في الهند تأثيراً سلبياً فحسب (وكان الرأي العام الاسلامي في الهند من وجهة النظر البريطانية هو محور موضوع الخلافة)، بل إن هذه الرعاية لن تعود بأي خير على العالم العربي. وقد جاء في تقرير رفعه بيرسي كوكس، أحد العاملين في الادارة السياسية للهند، في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٥، انه عقد اجتماعاً مع شيخ الكويت ومع ابن سعود وتبين له أن مسألة الخلافة لا تهمهما اطلاقاً. ومما قاله ابن سعود انه ليس بين زعماء شبه الجزيرة العربية «البتة من هو معني بمن يسمي نفسه خليفة» وادعى أن أتباع مذهبه الوهابي لم يعترفوا بأي خليفة من الخلفاء الذين تعاقبوا بعد الخلفاء الأربعة الراشدين (وآخرهم توفي قبل أكثر من ألف سنة)[١١].

(٣)

والغريب في الأمر أن ما من أحد في لندن أو في سيملا كما يبدو، قد استخلص الاستنتاج المناسب من واقعةٍ حدثت في نهاية ١٩١٤ ودلت على أن سلطة الخليفة وضعت موضع الاختبار فتبين أنها وهمية.

ففي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤، لدى دخول الامبراطورية العثمانية الحرب، دعا السلطان/الخليفة الى الجهاد ضد بريطانيا وسط مظاهرات حسنة التخطيط في القسطنطينية. كانت هناك جموع وفرق موسيقية وخطابات. وقد أمرت وزارة الخارجية الألمانية بارسال نسخ من إعلان الجهاد الى برلين فوراً لكي تترجم الى «العربية والهندية» (هكذا ورد في نص طلب الوزارة الألمانية) تمهيداً لتوزيع نشرات دعائية بين الجنود المسلمين في جيوش العدو[١٢]. وكان توقع موظفي وزارة الخارجية الألمانية أن تؤدي أعمال السلطان الى «ايقاظ التعصب العثماني» وقد تؤدي الى ثورة واسعة النطاق في الهند[١٣].

وقد اعتقد الملحق العسكري الألماني في القسطنطينية أن إعلان الجهاد سيكون له تأثيره على الجنود المسلمين في الجيوش البريطانية والفرنسية بحيث يمتنعون عن إطلاق النار على الجنود الألمان. بيد أن السفير البريطاني المتشكك برهن على أنه أوسع إدراكاً: إذ كتب في رسالة خاصة

(١٠) كدوري، **المتاهة الانكليزية ـ العربية**، ص ٥٢.

(١١) المرجع نفسه، الصفحات ٤٧ ـ ٥١.

(١٢) اولريش ترومبينر، **المانيا والامبراطورية العثمانية ١٩١٤ ـ ١٩١٨** (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، ١٩٦٨)، ص ١١٧.

(١٣) فريتز فيشر، **أهداف المانيا في الحرب العالمية الأولى** (نيويورك، و. و. نورتن، ١٩٦٧)، ص ١٢٦.

يقول ان إعلان الجهاد «لن يخدع سوى عدد قليل من المسلمين»[١٤] بالانتقال الى جانب دول أوروبا الوسطى. وقد كان على حق، فالجهاد ثبت أنه، حسب التشبيه الذي استحدث في الحرب العالمية الأولى، قنبلة أطلقت فلم تنفجر[*].

لقد كانت الحماسة للجهاد متدنية حتى في القسطنطينية، إذ أعلن الجهاد فلم يحدث شيء. ومع ذلك ظل البريطانيون قلقين خشية أن تحدث أية حركة تجعل القنبلة الخامدة تنفجر فجأة. وقد كتب جلبرت كلايتون في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٥ مذكرة ضمنها حجته القائلة انه بالرغم من فشل الدعوة الى الجهاد حتى ذلك الحين فقد تنشط من جديد[١٥]. وكان رأي اللورد كروو وزير الدولة لشؤون الهند، ان السبب الوحيد لفشل الدعوة هو أن الباب العالي لم يكن مسيطراً على الأماكن المقدسة في الحجاز: «فإذا ما استطاعت جمعية الاتحاد والترقي أن تتحكم بمكة فقد تستطيع أن تعلن جهاداً نظامياً (هكذا ورد في كلامه)، وربما تأثرت بذلك أفغانستان وسببت متاعب خطيرة للهند»[١٦].

في أثناء ذلك كان وينغيت وكلايتون وستورز يتابعون بنشاط خطة كيتشنر الداعية الى رابطة في عالم ما بعد الحرب مع شبه الجزيرة العربية ومع زعيم ديني عربي. وكان كلايتون حذراً فنبه الى أن مسألة الخلافة العربية مسألة دقيقة ويجب أن يأتي اقتراحها من العرب أنفسهم[١٧]. ولكن وينغيت، المتعجل دائماً الى التحرك نحو الأمام، أكد لفرتز جيرالد/كيتشنر «اننا سنفعل ما نستطيع لدفع الحركة العربية وقد وضعت أسياخاً عديدة في النار في هذا الصدد»[١٨].

غير أن مخاوف وزارة شؤون الهند استمرت، إذ أنها خشيت أن تؤدي هذه النشاطات الى جر مكة نحو دوامة السياسة العالمية ـ الأمر الذي قد يسبب اضطراب الرأي العام في الهند في وقت يكون فيه أي اضطراب قاتلاً. وقد كان على سيملا خلال الحرب أن ترسل الكثيرين من جنودها الأوروبيين الى أوروبا وأن ترسل أيضاً أعداداً كبيرة من الجنود الهنود. ولذلك كانت طوال مدة الحرب في وضع ضعيف من حيث القدرة على اخماد أية انتفاضات قد تحدث. وبدا لحكومة الهند أن كلاً من القاهرة والقسطنطينية تنهج سياسة تهدد بالهاب مشاعر المسلمين في الهند وبالتالي تعرض الامبراطورية الهندية للخطر.

---

(١٤) ترومبينر، **الامبراطورية العثمانية**، ص ١١٨.

(*) ان الاضطرابات التي اثارتها جماعات كقبائل السنوسي الرحل على حدود مصر مع ليبيا، لم تكن ذات أهمية وكان يمكن حدوثها في أي حال.

(١٥) كدوري، **المتاهة الانكليزية ـ العربية**، ص ٧٦.

(١٦) س. ج. لاو وم. ل. دوكريل، **سراب القوة**، المجلد ٣: **الوثائق، السياسة الخارجية البريطانية ١٩٠٢-١٩٢٢** (لندن وبوسطن: روتليدج وكيغان بول، ١٩٧٢)، ص ٥٣٨.

(١٧) جامعة دورهام، محفوظات وثائق السودان، أوراق كلايتون الرئيسية ج/س ٥١٣ ملف ١.

(١٨) كيو، مكتب السجل العام. أوراق كيتشنر ٣٠/٥٧ ٤٥ الوثيقة ٧٤.

ومع استمرار الحرب ازداد اعتقاد البريطانيين الذين كانوا يحكمون الهند أن أكثر أعدائهم خطراً لم يكونوا الاتراك ولا الألمان بل المسؤولين البريطانيين في حكومة مصر. ذلك أنه بالرغم من احتجاجات الهند مضى هؤلاء المسؤولون في حبك مؤامراتهم في مكة.

الرجل الذي في الوسط

(١)

ان مدينة مكة حيث مولد النبي محمد، والمدينة المنورة التي كانت هجرته اليها، هما المدينتان المقدستان لدى المسلمين في كل مكان وبفضلهما تكتسب بلاد الحجاز الجبلية التي تقع في القسم الغربي من شبه الجزيرة العربية، الممتد طولاً والضيق عرضاً بمحاذاة البحر الأحمر، أهمية فذة. وكلمة الحجاز بمدلولها اللغوي تشير الى الجبال التي تفصل بلاد الحجاز عن الهضبة الواقعة الى شرقها. وفي مطلع القرن العشرين كانت شبه الجزيرة العربية أرضاً قفراً ومعزولةً وكانت الحجاز، حسب وصف الموسوعة البريطانية طبعة عام ١٩١٠ «أكثر ولايات شبه الجزيرة العربية فقراً وتنفيراً» وكانت أجزاء كثيرة منها قفراً خالية من الماء وغير مأهولة. وكانت أرض الحجاز الممتدة ٧٥٠ ميلاً طولاً والتي يبلغ أقصى عرضها نحو مئتي ميل، تكاد لا تكفي لاطعام سكان عددهم نحو ٣٠٠,٠٠٠، نصفهم بدو والنصف الآخر حضر. ومع أنها كانت جزءاً من الامبراطورية العثمانية فإن بعدها عن القسطنطينية الذي تزيده بعداً على بعد الحالة البدائية للنقل والمواصلات، قد أتاح لها دوماً قدراً كبيراً من الحكم الذاتي.

ومحصولها الدائم هو التمر الذي يقال ان فيها مئة نوع منه، ولكن مصدر الدخل الحقيقي هو الحج السنوي. فقد كان نحو سبعين ألف حاج ييممون شطر مكة كل عام. وكانت حماية الحجاج من قبائل البدو الغازية هي المهمة الرئيسة لممثل الحكومة العثمانية المحلي. وقد درجت السلطات المحلية على تقديم معونات الى القبائل بأمل إقناعها بأن حماية الحجاج أجدى من مضايقتهم.

تقع مكة على بعد نحو خمسة وأربعين ميلاً من أقرب مرفأ ساحلي، وهي مسافة تقطعها الجمال في يومين. ومكانها في وادٍ قائظ قاحل، وتسيطر على الممرات في الشعاب المحيطة بها. وكان عدد سكانها يقدر بستين ألفاً. ودخول مكة وجوارها محظور على غير المسلمين. إن كل ممنوع مرغوب،

وقـد نجح عدد قليل من الرحالة الأوروبيين في النفاذ الى مدينة مكة متنكرين وعادوا بوصف تفصيلي لها.

وقد ذكر هؤلاء الأوروبيون أن بعض الممارسات السوداء ما زالت متبقية من الماضي البدائي حتى في هذه المدينة المقدسة. وحسب الموسوعة البريطانية فإن «الرذائل في مكة هي فضيحة للمسلمين جميعاً ومصدر دائم لاستغراب الحجاج الأتقياء. وتجارة الرقيق لها ارتباطات بالحج هي ارتباطات غير واضحة تماماً، ولكن قدراً كبيراً من استيراد وتصدير العبيد كان يجري تحت ستار الحج».

ومع ذلك فإن الرحالة الأوروبيين قالوا أيضاً إن شعب الحجاز، بل أهل شبه الجزيرة العربية كلها، هم بين نبلاء الناس طبعاً. وتقول الموسوعة البريطانية:

«إن العرب من حيث التكوين الطبيعي هم من أقوى وأنبل العروق البشرية في العالم. وهكذا فإنهم جسدياً لا يرضخون إلا للقلة من الأجناس البشرية هذا إذا رضخوا لأي منها، فأما ذهنياً فانهم متفوقون على معظم أجناس البشر ولا يحد من مسيرة تقدمهم سوى النقص الملحوظ في القدرة على التنظيم وعجزهم عن القيام بعمل مشترك. ومع أن أشكال حكومتهم تتسم بالبلادة والنواقص فان هذه الأشكال وصلوا اليها بجهد جهيد».

إذا أخذنا بما تقوله الموسوعة البريطانية فإن مهمة أمير مكة ليست بالمهمة السهلة.

إن مكـة كانت دائماً في نظر المسلمين مركز العالم. وجاءت الآن طموحات كيتشنر وأعوانه في القاهرة وطموحات جمعية الاتحاد والترقي في القسطنطينية لتنقل بلاد الحجاز القاحلة الى مركز سياسات القرن العشرين. فالاهتمامات الجديدة التي حظيت بها مكة في حرب عام ١٩١٤ قد جعلتها في موقع المركز بطرق أخرى غير محببة الى أميرها، لأنه وجد نفسه وسط نارين.

كان الحسـين بن علي حاكم الحجاز نيابة عن السلطان العثماني، يلقب شريف مكة وأميرها. والشريف من سبط النبي . والحسين مثل النبي محمد هو من آل هاشم(*). وقد درج النظام العثماني منذ بعض الوقت على تعيين أمير مكة من بين الأشراف المتنافسين. وفي عام ١٩٠٨ وقع اختيار السلطان شخصياً على الحسين وهو من قبيلة ذوي عون، بالرغم من معارضة جمعية الاتحاد والترقي التي ساندت مرشحاً من قبيلة منافسة.

وقد كان الحسين شأنه شأن صديقه الصدر الأعظم وشأن السلطان نفسه رجلاً ذا تربيةٍ ومعرفةٍ من الطراز القديم ويتلفظ بعباراتٍ منمقة. وقد كان ربع القامة ذا لحية بيضاء، وكان في نحو الستين من عمره عام ١٩١٤، وأمضى جزءاً كبيراً من حياته أسيراً مبجلاً في بلاط السلطان في القسطنطينية. وهناك لم تستطع حتى عيون الخصوم أن تلحظ في سلوكه ما يخالف الأصول. وكان يمضي وقته في التأمل خلال وجوده في بلاط السلطان.

(*) كان الحسين يقول عن نفسه وأسرته انهم هاشميون.

وكان الحسين لا يفتأ يعبر عن شدة ولائه الشخصي للسلطان. بيد أن السلطان كان رئيساً رمزياً للدولة، أما السلطة الحقيقية الممثلة في الباب العالي فقد كانت لجماعة تركيا الفتاة وهؤلاء رجال جدد بلا حسب أو نسب انعدم التعاطف بينه وبينهم، ولذلك فانه بالرغم من ولائه للسلطان وجد نفسه على خلاف متزايد مع حكومة السلطان ولا سيما مع سياستها القائمة على المركزية.

كان طموح الحسين أن يحتفظ بمنصب أمير مكة لنفسه ولأسرته من بعده، وعمل جاهداً لكي يزيد استقلاله بينما كانت حكومة جمعية الاتحاد والترقي المركزية تتآمر للحد من استقلاله. وقد اندفعت هذه الحكومة في العمل لانشاء سكة حديد الحجاز التي كان من أهداف انشائها تقليص الحكم الذاتي الذي يمارسه الأمير. وسكة حديد الحجاز تمتد من دمشق الى المدينة المنورة في الحجاز، وكانت حكومة الاتحاد والترقي عازمة على مد هذا الخط الحديدي الى مكة المكرمة والى ميناء جدة. وكان هذا يشكل خطراً على قبائل الحجاز التي تملك الجمال وعلى تحكمها بطرق الحج الذي يعود عليها بربحٍ وفير. وقد عزمت حكومة الاتحاد والترقي على ممارسة الحكم المباشر في مكة والمدينة وسائر الحجاز عن طريق استخدام السكة الحديدية وخطوط البرق، مما سيجعل من الشريف حسين مجرد موظف مرؤوس، فكان رده إثارة الاضطرابات الأهلية.

كان هذا تبدلاً في سياسة الحسين الذي كان قد بدأ إدارة شؤونه مستعيناً بالجنود الأتراك على القبائل العربية، ولكنه لم يكن تبدلاً في الولاء، إذ بقي في وضع يكتنفه الغموض: مؤيداً للامبراطورية العثمانية معارضاً لحكومتها.

خلال السنوات التي سبقت بدء الحرب الأوروبية مباشرةً تعددت الاتصالات بين الجمعيات السرية في دمشق والزعماء المتنافسين في شبه الجزيرة العربية، وكان الهدف تقصي امكانية جمع الصفوف ضد جماعة تركيا الفتاة ومن أجل حصول العرب في الامبراطورية على نصيب أكبر من حقوقهم. وقد كان لمعظم زعماء شبه الجزيرة العربية من وقت الى آخر ضلع في هذه المحادثات. وفي عام ١٩١١ طلب النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني الى الشريف الحسين أن يقود الشعوب العربية في حركة للتخلص من النير العثماني فرفض الشريف حسين، ويبدو أن الجمعيات السرية اتجهت بعد ذلك بعام الى منافسيه وليس إليه. والظاهر أن القوميين العرب اعتبروه في عام ١٩١٣ «أداة في يد الأتراك لضرب العرب»(١). ومع ذلك كانت الحكومة التركية أيضاً ترتاب فيه ارتياباً شديداً وتستقصي امكانية الاطاحة به.

إثنان من أولاد الحسين كانا ناشطين سياسياً. أحدهما عبدالله ابنه الأثير الى نفسه الذي كان نائباً عن مكة في البرلمان العثماني، أما الآخر فقد كان فيصل النائب عن جدة. وقد أشار عبدالله على والده أن يقاوم الحكومة التركية، معتقداً أن هذه المقاومة ممكنة إذا لقيت مساندة الجمعيات السرية وبريطانيا. أما فيصل فكان معارضاً لهذا الرأي. كان عبدالله قصير القامة ممتلىء

(١) س. ارنست دون، **من العثمانية إلى العروبة: مقالات عن أصول القومية العربية** (اوربانا وشيكاغو ولندن: مطبعة جامعة ايلينوي، ١٩٧٣)، ص ١٤ والحاشيتان ٤٢ و٤٣.

الجسم متوقد الذهن يتسم بطبع السياسي المهادن، ويدعو الى الجسارة. أما فيصل فكان طويل القامة، متسرعاً، عصبي المزاج وينادي بالحذر.

أمضى الحسين سنوات يستخدم خصومه الواحد ضد الآخر، وكان ميالاً الى التأني، ذلك أنه مع مرور كل سنة من سنوات عمله أميراً لمكة كان يعزز مكانته وامساكه بزمام الأمور وسيطرته على شبكة العلاقات الشخصية والعائلية والقبلية المعقدة التي عبرها تتوفر السلطة في الحجاز. وكان قد حد من النفوذ السياسي لمحافل جمعية الاتحاد والترقي المحلية في مكة والمدينة. وقد رسخ مكانته الأولى ضمن امارته.

بيد أنه وجد نفسه في العامين ١٩١٣ و١٩١٤ محاطاً بأعداء خارجيين. كان هناك جيرانه ومنافسوه التقليديون، الأمراء العرب في الجنوب والشرق، الذين كانوا يهددونه ويهددهم. وكان هناك القوميون العرب، وبعضهم يعتبره في الأساس موظفاً لدى تركيا. وكان هناك البريطانيون، ويستطيع أسطولهم بسهولة أن يسيطر على ساحل الحجاز الطويل بمجرد أن يدخلوا الحرب ضد الامبراطورية العثمانية ـ وكان يعرف انهم سيصبحون أعداءه إذا ما ربط مصيره بالامبراطورية العثمانية. وأخيراً كانت هناك الحكومة العثمانية التي تهدد بحسم مسألة الحكم الذاتي الذي يمارسه الأمير.

ولكن جمعية الاتحاد والترقي ما لبثت أن أرجأت خلال مدة الحرب اكمال السكة الحديدية وأرجأت إقرار أنظمتها الحكومية الجديدة وخطتها السرية لتعيين أمير جديد مكان الحسين. ولكنها أمرت الحسين أن يمد الجيش بالرجال. ولعل الحسين وعبدالله قد ساورتهما الشكوك في أن تكون جمعية الاتحاد والترقي قد أعدت مؤامرة هدفها ارسال رجال الحجاز المجندين الى ساحات قتال بعيدة وارسال الجنود الأتراك النظاميين ليأخذوا مكانهم في الحاميات الحجازية ومن ثم يستولوا على السلطة.

لقد أكد الحسين لجميع جيرانه الخطرين أنه سيعمل وفق رغباتهم ـ ولكنه أرجأ ذلك الى وقت ما في المستقبل. وقد طلب النصح من عبدالعزيز بن سعود منافسه القوي في الشرق، هل ينبغي له أن يشرك مكة في دعوة السلطان الى الجهاد ضد بريطانيا وحلفائها. كما أنه بحث مع قادة القوميين العرب القادمين من دمشق امكانية القيام بعمل مشترك ضد الباب العالي. ورداً على الطلبات التي وردته من الباب العالي، طلب تزويده بالمال لجمع جنود ومؤن للامبراطورية العثمانية ولكنه ظل يسوّف في ارسال أية وحدات الى الجيش التركي.

وكان رده على رسائل كيتشنر ووعوده رداً ودياً حاراً. وفي الوقت عينه ـ في نهاية عام ١٩١٤ ـ عندما كان جمال باشا يتأهب لمهاجمة البريطانيين عند قناة السويس، كتب الحسين اليه واعداً بإرسال جنود للمشاركة في الهجوم، بينما أرسل عبدالله رداً الى ستورز في القاهرة يقول فيه ان الحجاز قررت أن تكون الى جانب بريطانيا في الحرب، ولكنه طلب أن يبقى الأمر سراً، إذ ليس باستطاعته حالياً أن يكشف نيته بالتحالف مع بريطانيا وليس باستطاعته القيام بعمل. والسبب في رأي عبدالله والحسين أن الوقت لم يحن بعد.

(٢)

كان ستورز سعيداً لأن مراسلاته قد جعلت المعتمد البريطاني في القاهرة والمندوب السامي البريطاني على علاقة ودية وثيقة مع مكة. وقد كتب بتاريخ ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ الى فيتز جيرالد/كيتشنر قائلاً: «ما زلت على اتصال ودي جداً وحميم مع شريف مكة وأنا مقتنع اقتناعاً راسخاً أنه أجدر بعنايتنا واهتمامنا من أي زعيم آخر زعامته محلية محض (مهما كان قوياً في حد ذاته) ولا يستطيع أن يحظى بالاحترام الذي يجب أن يلقاه سنوياً من ممثلي الاسلام في سائر أنحاء العالم[٢].

في ذلك الحين كان كل ما يطلبه كيتشنر ومقر المعتمد البريطاني في واقع الأمر من الشريف حسين هو الحياد. ولما كانت رغبة الحسين هي أن يتجنب جره الى الحرب الخطرة فقد كان هناك وفاق بين الجانبين المتراسلين. ولم يفعل الحسين شيئاً لكي يشرك نفسه أو مكة بإعلان الجهاد. وبالنسبة لمقر المعتمد البريطاني أنجزت المراسلات كل ما كان مرغوباً فيه منطقياً. وقد كتب المندوب السامي هنري مكماهون الى كيتشنر في ٢ شباط (فبراير) ١٩١٥ قائلاً: «لا حاجة لأي عمل فوري... فكل ما هو لازم في الوقت الراهن، في ما يخص شريف مكة ـ قد أنجز»[٣].

شعر وزير الحربية بالرضى. ولم يكن يشاطر وينغيت اعتقاده أن قيام ثورة قبلية في شبه الجزيرة العربية يمكن أن يؤثر على مصير بريطانيا في الحرب. ولذلك لم يبدِ ما يشير الى خيبة الأمل عندما تخلف الشريف حسين عن عرض نفسه لقيادة مثل هذه الثورة. فقد كان كيتشنر يعتقد أن ألمانيا هي العدو وأن أوروبا هي ميدان المعركة الوحيد الذي يحسب له حساب. أما خطته على المدى البعيد للاستيلاء على الخلافة فانما هدفها عالم ما بعد الحرب. فقد كان يرى أنه هو وخطته ـ والشرق الأوسط ـ أمرهم مؤجل الى ما بعد انتهاء الحرب.

---

(٢) كيو، مكتب السجل العام. أوراق كيتشنر ٣٠/٥٧ ٤٧.

(٣) المرجع نفسه، الوثيقة ق.ق ١٥.

الجزء الثالث

بريطانيا تُجرّ
الى مستنقع الشرق الأوسط

الفصل الأول

القادة العسكريون الأتراك كادوا أن يخسروا الحرب

القادة العسكريون الأتراك كادوا أن يخسروا الحرب

(١)

لم يكن في نية كيتشنر عند تعيينه وزيراً للحربية أن تجر بريطانيا للتورط في الشرق الأوسط خلال الحرب. وعندما بدأ الطريق التي قادت الى هذا التورط لم يكن مدركاً أن هذا ما كان يفعله. ثم انه عندما وجد بلاده في ما بعد، أي في عامي ١٩١٥ و١٩١٦ متورطةً تورطاً كاملاً في الشرق الأوسط فلا بد أنه تساءل كيف سمح بنشوء مثل هذا الوضع. فقد كانت عقيدته الثابتة منذ بداية الحرب أن يهمل الشرق وأن يركز أنظاره على الجبهة الغربية.

وكان رأي كيتشنر القائل إن إهمال الشرق الأوسط وتركيا خلال مدة الصراع الأوروبي هو أمر سليم، ناجم عن افتراضه أن الامبراطورية العثمانية لا تشكل تهديداً عسكرياً هاماً. وكان كثيرون يشاطرونه هذا الافتراض.

لقد كان المسؤولون البريطانيون ينظرون الى قدرة العثمانيين العسكرية نظرة ازدراء، وقد رسخت هذه النظرة معارك الأشهر الستة الأولى في الشرق. فمنذ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٤، عندما فتحت البارجتان غوبين وبرسلاو النار على الساحل الروسي وحتى شباط (فبراير) ١٩١٥ عندما بدأ الأسطول البريطاني يثأر بقصفه مضائق الدردنيل ثم اتجه الى القسطنطينية، كانت الجيوش العثمانية تتعثر وتنتقل من هزيمة الى أخرى.

كان أنور باشا هو القائد الأعلى للقوات المسلحة التركية، وقبل بدء الحرب بأسبوع واحد كان قد أعلن نفسه «نائب القائد الأعلى». هذا المنصب وضعه نظرياً في مكان الشخص الثاني بعد السلطان ذي المنصب الرمزي، أما عملياً فلم يكن ثانياً لأحد.

كان أنور يتمتع بصفات المغامر ولم يكن يتمتع بصفات الجنرال. ومع أنه كان فطناً وماكراً، إلا أنه لم يكن قائداً عسكرياً كفوءاً. ان ليمان فون ساندرز الضابط البروسي الذي كان مستشاراً

للجيش العثماني والذي كان يجد نفسه دوماً على خلاف مع أنور باشا، كان يعتبر أنور مغفلاً في الشؤون العسكرية.

بيد أن أنور صوّر نفسه زعيماً من طبيعة مختلفة كلياً. لقد صور نفسه وريث مؤسسي الامبراطورية العثمانية، أولئك الغزاة الذين انطلقوا في القرن الرابع عشر من الغموض عبر حدود الامبراطورية البيزنطية الى مركز الصدارة في التاريخ[1].

عند بداية الحرب سارع أنور باشا الى مهاجمة الامبراطورية الروسية فوجد أمامه عقبةً كأداء هي سلسلة جبال القوقاز التي تشكل الحدود البرية بين الامبراطوريتين. ولم يلق بالاً الى نصح ليمان فون ساندرز فصمم على شن هجوم على طول الجبهة عبر تلك الحدود الطبيعية المخيفة التي حصنها الروس تحصيناً قوياً، لا سيما أنهم متمكنون بالأرض المرتفعة ـ وقد صمم أنور باشا أن يفعل ذلك في قلب فصل الشتاء. كان رأيه في البداية أن يجمع قواته على امتداد مساحة هائلة من الأرض داخل تركيا، ٦٠٠ ميل طولاً و٣٠٠ ميل عرضاً، وهي مساحة لا توجد فيها أية سكك حديدية لنقل الجنود والمؤن. أما الطرق القليلة في تلك المساحة، فقد كانت شديدة الانحدار ضيقة. وعبور الأنهر لم يكن ممكناً إلا بخوضها بعد أن انهارت الجسور، ولم يهتم أحد بإصلاحها. وبما أن أقرب محطة للسكك الحديدية كانت تبعد عن هذه المنطقة أكثر من ٦٠٠ ميل فكان لا بد من نقل كل طلقة أو كل قذيفة على ظهور الجمال ـ في رحلة تستغرق ستة أسابيع ـ وكان جزء كبير من هذه المساحة بلا طرق وغير مأهول ولم يسبق استكشافه ولا رسمت خريطة له، كما أن فصول الشتاء الطويلة والعواصف الثلجية الجبلية قد جعلت أجزاء كاملة منها عسيرة المرور في جزء كبير من السنة.

كانت خطة أنور باشا، كما شرحها للجنرال ليمان فون ساندرز، أن ينطلق من منطقة التجمع فيعبر الحدود الى أراضي القيصر، ثم يهاجم الموقع الروسي المحصن في هضبة القوقاز بواسطة ذلك النوع من الحركة المنسقة التي تصورها كتب منهاج الدراسة في المدارس العسكرية، أي أن تقوم بعض الأرتال بهجوم مباشر، بينما تنتشر أرتال أخرى في حركة تشبه الزاوية ثم تستدير لتقوم بعملية التفاف على جناح الجيش المعادي أو بعملية تطويق. ولم يلق بالاً إلى التحذير من أن القدرة على الحركة الاستراتيجية التي تقتضيها التحركات العسكرية التي يرتئيها لن تتوفر من دون وجود سكك حديدية أو وسائط نقل أخرى. بل لم تساوره شكوك في النجاح. وقد قال أنور باشا انه بعد أن يسحق القوات الروسية سيزحف على الهند عبر افغانستان لفتحها.

غادر أنور باشا القسطنطينية في ٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٤ وتولى قيادة الجيش الثالث العثماني في ٢١ كانون الأول (ديسمبر)، وقاد بنفسه الهجوم على هضبة القوقاز، فدب الفزع في

---

(١) مادة النص بشأن حملة القوقاز تترسم خطى الرواية المباشرة التي رواها الرائد فرانز كارل اندريز في الموسوعة البريطانية الطبعة الثانية عشر تحت عنوان: **الحملات التركية**.

صفوف الروس فناشدوا بريطانيا أن تفعل شيئاً لمساعدتهم، ولم يخطر لهم انهم يواجهون عدواً عاجزاً كل العجز.

عندما بدأ أنور باشا الهجوم خلّف مدفعيته وراءَ القوات المهاجمة بسبب كثافة الثلوج. وكان على جنوده أن يبيتوا في العراء في جو من البرد القارس (كانت درجة الحرارة دون الصفر)، وقد نفد طعامهم وانتشر وباء التيفوس بينهم، وتاهوا في الممرات الجبلية المتشابكة بعد أن غمرت الثلوج الطرق المألوفة. كانت خطة أنور باشا تقضي بأن تشن قواته هجوماً مفاجئاً ومنسقاً على قاعدة روسية تدعى ساريكاميش، وكانت هذه القاعدة عقبة على طريق الغزو. أما وقد فقدت الفيالق التركية الاتصال في ما بينها ووصلت الى ساريكاميش في أوقات متفاوتة لتشن هجومها، فقد كان نصيبها الافناء واحداً بعد الآخر.

إن ما كان جيشاً تحول إلى شراذم مشتتة هامت على وجهها وعادت الى شرقي تركيا في كانون الثاني (ينـاير) ١٩١٥. ومن مجموع نحو مئة ألف رجل اشتركوا في الهجوم[٢]، بلغت نسبة المفقودين ٨٦ بالمئة. لقد قال ضابط ألماني ملحق بالأركان العامة العثمانية في وصف ما حدث للجيش الثالث: «لقد أصيب هذا الجيش بكارثة لا توازيها في سرعة حدوثها وشموليتها كارثة أخرى في التاريخ العسكري»[٣].

مع ذلك فإن أنور باشا أمر لدى عودته من هذه الكارثة في شمال شرقي تركيا، بشن هجوم آخر ولدته فكرة خاطئة. وقد تولى قيادة هذا الهجوم جمال باشا، وزير البحرية، الذي كان ينظر الى أنـور باشا بعين الحسد، لأن مكانته وسلطته طغتا على مكانة وسلطة بقية زعماء حزب تركيا الفتـاة. وقـد ذهب جمـال باشا الى الميدان قائداً للجيش العثماني الرابع، المرابط في سورية وفلسطين. وفي ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ بدأ الزحف نحو مصر لشن هجوم مفاجىء عليها عبر قناة السويس.

ومرة أخرى أهملت المشاكل اللوجستية. وقد كانت طرق سورية وفلسطين من السوء الى حد أن المركبات التي تجرها الخيول لم تستطع أن تسلك الكثير منها[٤]، أما مفاوز صحراء سيناء فقد كانت بلا مسالك. ومع ذلك فقد برهنت روح الجندية العثمانية على قيامها بمعجزات من طاقة التحمل والشجاعة. وقد نجحت القوات العثمانية بشكل ما في نقل الجنود والمعدات من سورية الى السويس. وقام كريس فون كريسنشتاين، وهو ضابط مهندس ألماني، بحفر آبار على طول الطريق التي سلكتها هذه القوات وبذلك تمكنت من البقاء على قيد الحياة خلال مسيرتها عبر الصحراء. وقد اختير هذه المرة الوقت المناسب من أشهر السنة: ذلك أن شهر كانون الثاني (يناير) هو أفضل الشهور في مصر لتجنب الحر اللاهب.

(٢) ٩٠,٠٠٠ وفقاً لرواية اندرين، المرجع نفسه، الطبعة الراهنة الخامسة عشرة، **للموسوعة البريطانية**، تحت عنوان: **الحروب العالمية**، تورد رقم ١٨٠,٠٠٠.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) أحمد أمين، **تركيا في الحرب العالمية** (نيوهافن: مطبعة جامعة بيل، ١٩٣٠)، ص ٨٨.

ولكن ما أن وصل الجيش الرابع الى ضفاف قناة السويس حتى اكتشف جمال باشا أن معظم جنوده لا يستطيعون استخدام الجسور العائمة التي جيء بها من أجل عبورهم الى الضفة الأخرى. وكان المهندسون الألمان قد جاؤوا بهذه الجسور من ألمانيا، ولكن الجنود لم يتدربوا على استعمالها. ومع ذلك أصدر جمال باشا أمره ببدء الهجوم. وفي وقت مبكر من صباح ٣ شباط (فبراير)، وقبيل بزوغ الفجر بدأ الهجوم، فاستيقظ البريطانيون وراء استحكاماتهم ليكتشفوا وجود جيش عثماني على الضفة المقابلة للقناة الضخمة، ففتحوا النار عليه من أسلحتهم المتفوقة. وقد بلغ عدد قتلى الجيش العثماني في المعركة ألفي جندي ـ أي نحو عشرة بالمئة من قوات جمال باشا. عندها أصدر جمال باشا أمره بالتراجع ولم تتوقف قواته في تراجعها حتى وصلت الى سورية[٥].

وهكذا أصبحت القيادة العسكرية التركية موضع تهكم. وقد قال أوبري هيربرت في رسالة كتبها من فندق شبرد في القاهرة الى صديقه مارك سايكس قائلاً: إن آخر خطة عثمانية كانت تقضي: «بأن يحضر الأتراك آلاف الجمال الى حافة القناة ثم يشعلوا النار في وبرها. وعندئذ تستخدم الجمال ما عرفت به من حسن تدبر فتندفع الى مياه القناة لاطفاء النار. وما أن تفعل الجمال ذلك بأعداد كافية حتى يعبر الجنود الأتراك القناة على ظهورها»[٦].

وفي لندن استخف رئيس الوزراء بالغزو العثماني قائلاً: «لقد حاول الأتراك أن يقيموا جسراً عبر قناة سويس وأن يشقوا بعبقريتهم طريقاً الى مصر. إن هؤلاء المساكين وجسرهم المزعوم قد تحطموا شر تحطيم وتقهقروا عبر الصحراء»[٧].

(٢)

كان أنور باشا يفترض أن الحرب قصيرة وانها ستحسم ببضع حملات صاعقة. ولم تكن لديه خطة لحرب استنزاف ولا فهم ما تنطوي عليه حرب كهذه. ولم تكن عنده موهبة التنظيم ولا فهم للأمور اللوجستية ولا أناة للادارة. وبصفته وزيراً للحربية قاد بلاده دون تفكير الى الفوضى[٨].

(٥) فرانك ج. ويبر، **نسور على الهلال: المانيا والنمسا ودبلوماسية التحالف التركي ١٩١٤ـ١٩١٨** (ايناكا ولندن: مطبعة جامعة كورنيل، ١٩٧٠)، ص ٩٨، وس. ر.م. ف. كراتويل، **تاريخ الحرب الكبرى**، الطبعة الثانية (اوكسفورد: مطبعة كلاريندون، ١٩٣٦)، ص ٣٥١.

(٦) مارغريت فيتزهيربرت، **الرجل الذي كان العباءة الخضراء: سيرة حياة اوبري هيربرت** (لندن: جون مري، ١٩٨٣)، ص ١٤٧.

(٧) هـ. هـ. اسكويت، **رسائل إلى فنيشيا ستانلي**، أعدها للطباعة مايكل واليانور بروك (اوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة اوكسفورد، ١٩٨٢)، ص ٤١٤.

(٨) الاحصاءات التي تلي أخذت من: تشارلز عيساوي، **تاريخ تركيا الاقتصادي: ١٨٠٠ ـ ١٩١٤** (شيكاغو ولندن: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٨٠)، الصفحة ٣٦٦ وما يتبعها.

بدأ ذلك بإصداره أمراً الى سائر الرجال القادرين على حمل السلاح في سائر ممتلكات الامبراطورية للمثول من أجل تجنيدهم في الجيش فوراً، على أن يحضروا معهم طعاماً يكفيهم ثلاثة أيام. ولما مثلوا وفقاً للأمر الصادر اليهم ـ بعبارة أخرى وصلوا جميعاً في الوقت عينه ـ ضاقت بهم مكاتب التجنيد التي لم تستطع التعامل مع هذا العدد الكبير في آن واحد. وبما أن هؤلاء المجندين جاؤوا من المناطق الريفية فقد استنفدوا الطعام الذي جاؤوا به ليكفيهم ثلاثة أيام ولم يعد لديهم ما يأكلون. وسرعان ما بدأوا يتسللون هاربين، فاعتبروا فارين، وخافوا العودة الى مكاتب التجنيد وإلى بيوتهم.

إن جلب الطاقة البشرية من الريف أدى الى تدمير محصول كان يمكن أن يكون وافراً في عام ١٩١٤. واستمرت هذه الحال طوال الحرب، إذ ان سحب الرجال ومصادرة حيوانات النقل جلبا للبلاد المجاعة في سني الخير وسني المحل. وخلال سني الحرب تدنت امدادات حيوانات النقل فانخفض عدد الخيول إلى ٤٠ بالمئة وعدد الثيران والجاموس الى ١٥ بالمئة مما كان عليه سابقاً. وتقلص النشاط الزراعي بالنسبة المثيرة نفسها فانخفضت المساحة المزروعة حبوباً الى النصف والمساحة المزروعة قطناً الى ثمانية بالمئة من مستوى انتاج ما قبل الحرب. وأصبح التحكم بالمؤن النادرة من مواد غذائية وسلع أخرى مفتاح الثروة والسلطة. فكان في العاصمة القسطنطينية بامتدادها الواسع زعيم سياسي من طراز رؤساء عصابات شيكاغو يحارب المدير العام للقوميساريا التي عينها أنور باشا لادارة الاقتصاد.

أما نظام النقل في الامبراطورية، فقد حطمته الحرب. وفي غياب السكك الحديدية والطرق الصالحة للاستخدام كان معظم البضائع في الماضي ينقل بحراً. أما الآن فإن سواحل الامبراطورية وطولها ٥,٠٠٠ ميل أصبحت تحت رحمة مدافع أساطيل الحلفاء. وفي الشمال سحب الألمان والأتراك البارجتين غوبين وبرسلاو من أجل الدفاع عن الدردنيل، تاركين البحر الأسود للبوارج الروسية التي بنيت حديثاً. أما البحر الأبيض المتوسط فكان تحت سيطرة الأسطولين الفرنسي والبريطاني. وقطعت سفن الحلفاء الطريق على تموين العثمانيين بالفحم الحجري، فأصبح اعتماد الامبراطورية العثمانية في احتياجاتها من الوقود على التموينات الهزيلة التي أمكن نقلها براً من ألمانيا.

وعشية نشوب الحرب لم يكن في الامبراطورية العثمانية، وتعداد سكانها ٢٥ مليون نسمة، سوى ١٧ ألف عامل صناعي. ولأسباب عملية لم يكن في البلاد صناعة[٩]، كل ما كان فيها هو الزراعة التي حل بها الخراب الآن. ومع انتهاء الحرب انخفضت تجارة التصدير الى الربع وتجارة الاستيراد الى عشر ما كانت عليه.

كان الباب العالي يعاني من عجوزات ضخمة في الميزانية خلال سنوات الحرب، وبدافع اليأس

(٩) أمين، **تركيا**، ص ٩٢.

أخذ يصدر عملات ورقية جديدة لتسديد هذا العجز، فبلغ ارتفاع الأسعار في الحرب نسبة ١٦٧٥ بالمئة.

وما لبثت الحرب أن جعلت الاقتصاد العثماني ينحدر الى الحضيض، ولم تكن لدى حكومة تركيا الفتاة أية فكرة بشأن معالجة هذا الوضع.

كيتشنر يسمح لبريطانيا بمهاجمة تركيا

(١)

واجهت الحكومة البريطانية بدورها مشاكل غير متوقعة ولم تكن لديها فكـرة عن كيفيــة معـالجتهـا. فعندما بدأت الحرب لم يخطر لأحد في بريطانيا أن الجيوش المتحاربة ستحفر خنادقها عبر أوروبا الغربية. أما وقد حدث ذلك فلم تكن لدى أحد في بريطانيا فكرة عن كيفية اختراق خطوط العدو.

ومع انتهاء عام ١٩١٤ وبداية عام ١٩١٥ ازداد استياء مجلس الوزراء البريطاني من طريقة ادارة الحرب. وبدا أن استراتيجية اللورد كيتشنر القاضية بتركيز كل القوات في أوروبا الغربية لا تعطي أي أمل في النصر في المستقبل المنظور. وكان ديفيد لويد جورج، أحذق السياسيين في مجلس الوزراء، هو أبرز الأعضاء المتطلعين الى مخرج من هذه الحال.

كان لويد جورج أقوى السياسيين في حزب الأحرار وفي مجلس الوزراء بعد اسكويث، ولم يكن بالشخص المستعد عن طيبة خاطر للذهاب الى قعر اليم في سفينة غارقة. فقد كان في المقام الأول شخصاً قادراً على النجاة: وسيتبين بعد ذلك بسنين أنه كان الوزير البريطاني الوحيد الذي نجح في البقاء في مجلس الوزراء منذ نشوب الحرب وحتى نهايتها.

ان هذا الساحر السياسي المتوهج والنشط القادم من ويلز كان، في زمنه، المخطط الاستراتيجي الأول - وبعضهم يقول الانتهازي الأول - وقد كتب أحد معاصريه يقول: «بالنسبة الى لويد جورج لا سياسة دائمة ولا تعهد نهائياً. ان التواءات سياسته جعلته يطلب التأييد من جماعة ثم يطلبها من جماعة أخرى، بحيث «أصبح شبيهاً بمن يتنقلون من صهوة حصان الى صهوة حصان آخر في السيرك، إذ انه كان مضطراً للقفز من ظهر حصان إلى آخر»[1]. وقد عرف بتلونه

(١) اللورد بيفربروك، **الرجال والسلطة ١٩١٧ - ١٩١٨** (لندن هتشينسون، ١٩٥٦)، ص ١٧ بالأرقام اللاتينية.

حتى ان أحـد المعجبين به قال ان الصدق عنده ليس خطأ مستقيماً بل هو على الأرجح خط منحنٍ[٢]. أما هو فقد تحدث عن نفسه قائلاً: «ما آمنت قط بهجوم مجابهة لا في الحرب ولا في السياسة إذا ما كانت أمامي طريق للالتفاف»[٣].

وما من وزير كان أكثر منه شعوراً بالاحباط بسبب الطريقة التي اتبعها قادة الحلفاء العسكريون في خوض الحرب في فرنسا والفلاندرز: أي أسلوب الهجمات المباشرة الميؤوس منها على مواقع العدو المتحصن في خنادقه. وكلما سعى لايجاد مخرج ما وجد طريقه مقفلة إما من قبل وزارة الحربية المعبرة عن آراء الجنرالات البريطانيين وإما من قبل وزارة الخارجية المعبرة عن آراء حلفاء بريطانيا.

كان لويد جورج منذ البداية يتطلع الى حل في الشرق. وكان هو أحد محبذي الدخول في تحالفات مع دول البلقـان، ولا سيمـا مع اليـونـان، من أجل الحاق الهزيمة بالامبراطورية العثمانية والالتفاف على ألمانيا. وقد وافقه وزراء آخرون وكذلك موريس هانكي، سكرتير مجلس وزراء الحرب وأكثر الموظفين المدنيين نفوذاً. ان المذكرة التي رفعها هانكي بتاريخ ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٤ مقترحاً الهجوم على الدردنيل بالتعاون مع حلفاء من دول البلقان، تضمنت بصورة مقنعة الحجج التي تسند اعتقاد مجلس الوزراء بأنه: «ربما كان بالامكان ضرب ألمانيا بصورة أشد فاعلية وبنتائج أكثر ديمومة بالنسبة للسلام العالمي، عبر حلفائها وخصوصاً عبر تركيا»[٤].

غير أن وزير الخارجية ادوارد غراي حال دون الأخذ بهذا الأسلوب. ويقول زملاء لويد جورج في الجناح اليساري لحزب الأحرار، إن غراي هو الذي أسقط البديل الذي كان متاحاً لبريطانيا بالبقاء محايدة في الحرب. وهم يدعون أنه فعل ذلك نتيجة الترتيبات السرية التي اتفق عليها مع فرنسا قبل الحرب[*]. (لقد كتب الفيلسوف برتراند راسل في ما بعد يقول: «كنت قد لاحظت خلال السنوات السابقة الى أي حد كان ادوارد غراي حريصاً على الكذب لكي يحول دون اطلاع الرأي العام على الأساليب التي اتبعها لالزامنا بتأييد فرنسا في حال نشوب الحرب»[٦]). ومرة أخرى كان غراي، الذي سبق أن أجرى ترتيبات سرية قبل الحرب مع روسيا بشأن الدردنيل، هو الذي

(٢) وولتر هاينز بيج، اقتباس عنه في: كتاب كنيث مورغان، **لويد جورج** (لندن: ويندنفيلد ونيكولسون، ١٩٧٤)، ص ١٣.

(٣) أ. ج. ب تيلور، **التاريخ الانكليزي ١٩١٤ ـ ١٩٤٥** (أوكسفورد: مطبعة كلارندون، ١٩٦٥)، ص ٧٤.

(٤) مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل**، المجلد ٣، ١٩١٤ ـ ١٩١٦، **تحدي الحرب** (بوسطن: هوتن ميفلين، ١٩٧١)، ص ٢٣٠.

(*) ان البينات التاريخية المتوافرة الآن تدل على أن ذلك لم يكن صحيحاً[٥]. لكن الجناح اليساري في حزب الأحرار ظل يعتقد أنه صحيح.

(٥) زارا سينر، **بريطانيا ومنطلقات الحرب العالمية الأولى**، (لندن وبيزينغستوك: مكميلان، ١٩٧٧).

(٦) **سيرة حياة برتراند رسل بقلمه** (لندن: كتب اندين ذات الغلاف الرخيص، ١٩٧٨)، ص ٢٣٩.

أخذ الآن يحاجج قائلاً إن مطالب الحلفاء بالحصول على مكاسب اقليمية بعد الحرب انما تحول دون زج دول البلقان في الحرب. لقد كانت وجهة نظر وزارة الخارجية البريطانية ليس فقط أن التنافس بين بلغاريا وكل من رومانيا واليونان يجعل أي تحالف يضم هذه الدول الثلاث تحالفاً غير عملي، بل كانت وجهة نظرها أيضاً أن الحصول على مساعدة اليونان من أجل الاستيلاء على القسطنطينية أمر غير مقبول لأنه سيغضب الروس.

ومع ذلك كان ثمة اتفاق بين الأميرالية، ووزارة الحربية ومجلس الوزراء أنه ليس بالامكان الاستيلاء على القسطنطينية بواسطة الأسطول البريطاني وحده، وأنه لا بد من اشتراك جيش في الاستيلاء عليها. فإذا لم يكن مسموحاً للجيش اليوناني أو جيش آخر من جيوش دول البلقان أن يقدم المساعدة فلا بد من الاستعانة بالجيش البريطاني. ولكن اللورد كيتشنر ساند قادة الحلفاء في الميدان الذين تمسكوا بعدم نقل أي عدد من الجنود من خنادقهم في الجبهة الغربية حتى يتم كسب الحرب في أوروبا.

وعلى الرغم من النظرة المتفائلة التي أبداها قادة الحلفاء في الميدان، لم يظهر في الأشهر والسنوات الأولى من الحرب ما يوحي للأعضاء الرئيسيين في مجلس الوزراء أن كسب الحرب على الجبهة الغربية وشيك أو أنه يمكن كسبها. ففي السابع من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٤ ذكر اسكويث أن كيتشنر «يظن انه ليس أمراً بعيداً عن الاحتمال أن تصل الجيوش الكبرى المتواجهة، ربما خلال بضعة شهور، الى ما يشبه المأزق»[٧]. وفي نهاية شهر كانون الأول (ديسمبر)، رأى ونستون تشرشل (وقد باح بذلك الى رئيس الوزراء): «ان ثمة امكانية ألا تكون لأي من الجانبين القدرة على اختراق خطوط الجانب الآخر في مسرح الحرب الغربي». وفي الوقت نفسه استبعد لويد جورج، في مذكرة لزملائه في مجلس الوزراء، امكانية حدوث اختراق على الجبهة الغربية، لأن حدوثه «مستحيل»[٨].

لم يعرف التاريخ حالة تشبه حالة حرب الخنادق التي نشأت بنت ساعتها في خريف عام ١٩١٤، ومع أن كيتشنر رأى المشكلة بعين بصيرته، فقد اعترف انه لا يرى حلاً لها. ذلك أن دول التحالف ودول أوروبا الوسطى حشدت جنوداً في خطين متوازيين من التحصينات التي ما لبثت أن امتدت من المحيط الاطلسي الى جبال الالب، وبذلك أغلق كل من الجانبين اغلاقاً محكماً الطريق أمام الجانب الآخر.

لقد بدأت حرب الخنادق باعتبارها مباراة في طاقة التحمل وانتهت باعتبارها سباقاً من أجل الأرض في ما طوله نحو ٣٥,٠٠٠ ميل من الخنادق التي حفرت، بحالة من القذارة الشديدة،

(٧) هـ. هـ. اسكويث، رسائل إلى فنيشيا ستانلي، أعدها للطباعة مايكل واليانور بروك (أوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة اوكسفورد، ١٩٨٢)، ص ٢٦٦.

(٨) جيلبرت، تشرشل: تحدي الحرب، ص ٢٦٦، وجون غريغ، لويد جورج: من السلم إلى الحرب ١٩١٢ - ١٩١٦ (لندن: ميتوين، ١٩٨٥)، ص ١٩٤.

وتبادل القصف المدفعي بغير انقطاع، وكان هذا القصف يقترن بهجمات انتحارية عقيمة على الأسلاك الشائكة ومرابض المدافع الرشاشة من كل جانب على الجانب الآخر، فكان الوضع أشبه ما يكون بوجود فريقين أحدهما فريق من المحكوم عليهم بالاعدام، والآخر فريق تنفيذ الاعدام، وهذا الفريق يؤدي مهمته كلما شن الفريق الآخر هجوماً من هجماته المتكررة، دون أن يكسب أي من الجانبين أرضاً من الجانب الآخر. كانت حلقة مقفلة.

واتجه الوزراء المدنيون الى الحكيم العسكري الذي في وسطهم طلباً للتوجيه، ولكن هذا الحكيم كان أحياناً يصمت صمتاً مزعجاً وكان أحياناً أخرى يتلفظ بكلام يقوض الايمان بقدرته على التنبؤ. ولسوء الحظ أن فيتز جيرالد لم يكن له حضور في مجلس الوزراء ليتولى الكلام والاستماع نيابة عنه. وكان الفيلد مارشال/كيتشنر يجد دوماً صعوبة بالغة في شرح وجهات نظره العسكرية حتى لأقرب المقربين من زملائه. أما في حضور الذين كان يخشاهم ـ الغرباء والمدنيين والسياسيين ـ فكان ينعقد لسانه عن الكلام. ولكي يقطع حبل الصمت كان يشرع أحياناً في أحاديث عن أمور غير عسكرية لا يفقه فيها شيئاً. فكان يتحدث عن ايرلندا الى الزعيم الايرلندي كارسون، وعن ويلز الى لويد جورج، فيصاب كلاهما بالدهشة إذ يجدانه جاهلاً أحمق.

كان في داخله قدر من النبوغ، ولكنه لا يظهر إلا في المناسبات. وبعد الحرب بسنوات، تراجع لويد جورج عن رأي كان أبداه بأن كيتشنر «يتكلم كلاماً سخيفاً»، فقال:

«كلا! بل هو فنار (دوار) عظيم. فقد كان شعاع ذهنه ينتشر أحياناً، فيرينا أوروبا والجيوش المحتشدة في منظور واسع غير محدود حتى ليشعر المرء منا انه ينظر الى قلب الواقع ـ ثم يختفي الشعاع أسابيع فإذا هناك ظلام دامس»[٩].

إن فشل كيتشنر في أن يدلّهم على مخرج من هذه الحالة المستعصية قد دفع بقادة البلاد المدنيين الى ابتكار خطط من عندهم، وقد تشابهت هذه الخطط من حيث انها كلها ارتأت الالتفاف على الجبهة الغربية المنيعة من أجل مهاجمة الألمان من الشمال أو الجنوب أو الشرق. كانت نظرية القادة العسكريين تقضي بمهاجمة العدو في أقوى مواقعه، أما نظرية السياسيين فكانت تقضي بمهاجمته في أضعف مواقعه.

وقد مال لويد جورج في تفكيره الى التعاون مع اليونان في منطقة جنوب شرقي أوروبا، وهي منطقة ضعف. أما تشرشل فقد اقترح، بايحاء من الأميرال اللورد فيشر (وكان تشرشل قد استدعاه بعد تقاعده للخدمة بصفة لورد البحرية الأول) إنزال قوة على إحدى الجزر في شمال غربي أوروبا قرب ساحل ألمانيا على بحر البلطيق. بيد أن موريس هانكي اكتسح الجميع بمذكرته المقنعة التي تحمل تاريخ ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٤.

فقد اقترح هانكي أن تحرك بريطانيا ثلاثة فيالق لتشترك هذه الفيالق مع اليونان وبلغاريا

(٩) اللورد بيفربروك، **السياسيون والحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٦** (لندن: اولدبورن، ١٩٦٠)، ص ١٧٥.

ورومانيا في مهاجمة تركيا من الدردنيل وبالتالي احتلال القسطنطينية والحاق الهزيمة بحليفتي ألمانيا، الامبراطورية العثمانية وامبراطورية آل هابسبورغ. وقال انه يجب أولاً تذليل مشكلة التوفيق بين بلغاريا وكل من اليونان ورومانيا، ولكنه أعرب عن اعتقاده بامكانية ذلك نتيجة لمشاركة الحلفاء العسكرية في الحملة وتقديم ضمانات من الحلفاء بأن تحصل هذه الدول الثلاث جميعها على حصة عادلة من غنائم النصر.

ولدى اطلاع تشرشل على المذكرة قال انه سبق أنه دعا هو نفسه قبل شهرين الى هجوم على الدردنيل، ولكن كيتشنر رفض امداده بالقوة البشرية التي يتطلبها الهجوم، وقال أيضاً إن القيام بهذا الهجوم في كانون الثاني (يناير) سيكون أصعب مما لو نفذ في تشرين الثاني (نوفمبر). وظل تشرشل على اعتقاده بأن مشروع بحر البلطيق هو أكثر وعداً بالنجاح، ولكنه أقرّ بأنه وهانكي تفكيرهما واحد بدعوتهما الى القيام بعملية التفاف.

بيد أن خطة هانكي لم توضع قط موضع الاختبار. فقد تعثرت في المياه الضحلة المعتادة: امتناع كيتشنر عن تحويل قوات من الجبهة الغربية، وخشية سير ادوارد غراي من احتمال ازعاج روسيا إذا ما زحفت اليونان على القسطنطينية. ولم يكن لدى غراي أمل في التوفيق بين مطالب بلغاريا ومطالب دول البلقان الأخرى، ولكن كان في مقدمة ما جعله يعارض هجوماً يونانياً على الدردنيل خوفه من احتمال نجاح الهجوم، إذ أن اليونانيين إذا ما فتحوا عاصمة امبراطوريتهم القديمة، القسطنطينية (استانبول)، عاصمة الامبراطورية البيزنطية في أيام عزها، فمن غير المحتمل أن يتخلوا عنها، بينما روسيا (في رأي غراي) لن تسمح لبلد آخر بالاستيلاء على هذه المدينة، ولو كلفها الأمر أن تنتقل من جانب الى آخر في الحرب.

كان الوضع في أثينا أن رئيس الوزراء فينيزيلوس، الذي عرض عند بدء الحرب أن تدخل بلاده الحرب ضد تركيا، قد بقي على ميله للانضمام الى الحلفاء، في حين أن خصمه السياسي، صهر القيصر الألماني، الملك قسطنطين الموالي لألمانيا، كان يعمل لمنعه من الاقدام على ذلك. ولكن وزارة الخارجية البريطانية بدل أن تلقي بثقلها وراء فينيزيلوس، عارضت، شأنها شأن الملك قسطنطين، دخول اليونان الحرب.

إذا عدنا الى الماضي يبدو لنا واضحاً أنه لو زحف الجيش اليوناني على القسطنطينية في أوائل عام ١٩١٥، مدعوماً من الأسطول البريطاني، لوجد العاصمة العثمانية قاصرة عن حماية نفسها. ان العذاب الذي أمضّ ونستون تشرشل لأن هذا الهجوم لم تتح له الفرصة، يبدو جلياً في عبارات رسالة خطها الى غراي في شتاء عام ١٩١٥ ولكنه لم يرسلها اليه:

«أتوسل اليك... ان الاجراءات التي تتسم بفتور الهمة سوف تدمر الجميع، وسيموت مليون رجل عبر إطالة أمد الحرب... يجب ألا توضع أية عقبة على طريق تعاون اليونان معنا ـ أخشى كثيراً انك ستخسر اليونان ثم تدفع بالمستقبل كله الى أيدي الروس. إذا حالت روسيا دون مساعدة اليونان لنا فسأبذل قصارى جهدي لحرمانها الحصول على القسطنطينية... حاشية: إذا لم

تساند اليونان الحالية ـ يونان فينيزيلوس ـ فستجد أمامك يوناناً أخرى تنشق عنا الى ألمانيا»[10].

(٢)

عند بداية عام ١٩١٥ غير اللورد كيتشنر رأيه فجأة واقترح أن تهاجم بريطانيا الدردنيل، وكانت القيادة العليا الروسية قد طلبت بالحاح شن هجوم تحويلي هناك، وخشي أن تخرج روسيا من الحرب إذا لم يلب طلبها ـ وهذا لو حدث آنذاك لكان مميتاً بالنسبة لبريطانيا وفرنسا، إذ أنه كان سيسمح للألمان بتركيز قواتهم كلها في الغرب. غير أن كيتشنر أصر على أن يتولى الأسطول البريطاني وحده القيام بهذا الهجوم وقال انه لن يقدم قوات برية. مهما يكن من أمر فقد سارع الأعضاء المدنيون في مجلس الوزراء الى اغتنام هذه الفرصة بغية الخلاص من استراتيجية الجبهة الغربية التي اعتبروها (خلافاً لراي جنرالات الحلفاء) حالة ميؤوساً منها.

كان هجوم أنور باشا على القوقاز هو سبب النداء الروسي بطلب المساعدة وبالتالي كان سبب تبدل رأي كيتشنر. ولكن استغاثة روسيا حدثت قبل انتصارها السريع والسهل والحاسم على قوات أنور باشا في كانون الثاني (يناير) ١٩١٥. وكان المنطق يقضي بعد سحق الغزو العثماني في ذلك الشهر أن يبلغ الروس اللورد كيتشنر أنه لم تعد ثمة ضرورة لشن الهجوم التحويلي على القسطنطينية ـ أو كان ينبغي لكيتشنر أن يستخلص هذا الاستنتاج بنفسه. ولكن بدلاً من ذلك ظل قادة بريطانيا طوال شهري كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) يفكرون بالطريقة المثلى لمهاجمة القسطنطينية من أجل إنقاذ روسيا من تهديد تركي لم يعد له وجود.

هكذا بدأت حملة الدردنيل التي قدر لها أن تبدل تبديلاً كبيراً مصائر تشرشل وكيتشنر واسكويث ولويد جورج وبريطانيا والشرق الأوسط.

(١٠) جيلبرت، تشرشل: تحدي الحرب، الصفحتان ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

نحو النصر في الدردنيل

(١)

عندما اقترح اللورد كيتشنر أن يقوم الأسطول البريطاني وحده بالحملة على الدردنيل، كان الرد الذي تلقاه تشرشل من أميرالية الأسطول وفيه ترديد صدى ما كان يقوله كل انسان مطلع في القيادات العسكرية وفي الحكومة: إن الدردنيل لا يمكن اقتحامه إلا بعملية مشتركة ينضم فيها الجيش الى الأسطول. إن نظرة واحدة على الخريطة تكفي لبيان السبب. فالمضائق التي تمتد ٣٨ ميلاً طولاً لا يزيد عرضها في أي مكان على أربعة أميال. والسفن الحربية التي تحاول أن تشق طريقها في معاكسة التيار الشديد ستواجه صفوفاً من الألغام أمامها وستواجه أيضاً قصفاً مدفعياً من كلا الشاطئين الأوروبي والآسيوي. وبعد أن تقطع السفن الحربية ثلاثة عشر ميلاً عقب دخولها هذا الممر المائي تصل ألى أضيق النقاط، حيث المسافة بين الشاطئين لا تزيد على ١٦٠٠ ياردة ويمكن السيطرة عليها بمدفعية قلاع الشاطيء. ولا يمكن اسكات مدفعية الشاطيء وإتاحة الفرصة أمام سفن الأسطول لكنس الألغام التي تواجهها إلا إذا استولى جيش مهاجم على الشريط الساحلي. وبعبارة أخرى كان لا بد من اقتحام قلاع الشاطيء وتدميرها لكي يتاح للأسطول اجتياز المضيق.

اجتمع كيتشنر مع مستشاريه في وزارة الحربية طالباً اليهم أن يعيدوا النظر في موقفهم إزاء فتح جبهة جديدة، ولكنهم ظلوا متشبثين بمعارضتهم توفير قوات برية لهذه الحملة. وقد اجتمع تشرشل بدوره صباح ٣ كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ مع مجموعة الحرب في قيادة الأميرالية لاعادة النظر في الرأي القائل انه لا يمكن فعلاً القيام بعملية تقع كلها على عاتق الأسطول، آخذين بعين الاعتبار أهمية إبقاء روسيا شريكة في الحرب. وقد طرحت في هذا الاجتماع فكرة استخدام سفن حربية قديمة يمكن الاستغناء عنها فحسب. وقررت مجموعة الحرب أن تطلب رأي قائد الأسطول في المنطقة.

وما إن رفع الاجتماع حتى استوضح تشرشل رأي قائد سفن الأسطول البريطاني المرابطة قرب الدردنيل الأميرال ساكفيل كاردن. وقد سأله تشرشل في البرقية التي وجهها اليه: «هل تعتبر اقتحام الدردنيل بسفن الأسطول وحدها أمراً عملياً؟» ـ وأضاف أن السفن الأكثر قدماً هي التي ستستخدم وان أهمية هذه العملية تسوغ تحمل خسائر جسيمة[1].

ولدهشة الجميع رد الأميرال كاردن على برقية تشرشل قائلاً ان الدردنيل لا يمكن الاستيلاء عليها بهجوم واحد، ولكن يمكن اقتحامها بعمليات مطولة وباستخدام عددٍ كبير من السفن[2]. كان الأميرال كاردن في موقع القيادة قرب الدردنيل منذ شهور وآراؤه كانت لها المكانة الأولى في ذلك الحين.

وهكذا تغلب مجلس الوزراء على رأي تشرشل ـ الذي كان يحاجج محبذاً القيام بضربة بحرية في البلطيق بدلاً من مهاجمة الدردنيل ـ وفوِّضَ بتنفيذ خطة الأميرال كاردن بمهاجمة الدردنيل. ولم يكن تشرشل معارضاً لخطة الدردنيل وإنما كان فقط يفضل خطة البلطيق. أما وقد اتخذ القرار بشأن خطة الدردنيل فقد انطلق لتنفيذها بكل ما لديه من طاقة وحماسة.

(٢)

كان تشرشل موهوباً من عدة وجوه ولكنه كان يفتقر الى الاحساس بمزاج زملائه وردود فعلهم، ويتغافل عن الأثر الذي يحدثه هو فيهم. وعندما أصدر أوامر يشعر ضباط البحرية انه ينبغي صدورها عن واحد منهم، فقد أوجد حالة من العداء ضمن المؤسسة لم يكن واعياً لها، ولم يعرف انهم ينظرون اليه على أنه هاوٍ متطفل وأن عدم دقته في استخدام لغتهم التقنية تثير نقمتهم.

ولم يعرف أيضاً (إذ لم يخبره أحد) مدى نفور زملائه في مجلس الوزراء من خلاله الأخرى. فقد كان يثرثر بشأن أفكار تتعلق بوزاراتهم، الأمر الذي اعتبروه تدخلاً من جانبه. وكان يستغرق في الكلام الى حد لا يطيقونه. ولم يجرؤ مرؤوسوه ولا زملاؤه أن يخبروه وجهاً لوجه أن العمل معه غالباً ما يكون مستحيلاً. وحتى اللورد فيشر، وهو معبود تشرشل وموجهه في الشؤون البحرية، والذي اختاره تشرشل لورد البحرية الأول، وجد صعوبة في التعامل معه، مع انه ينبغي القول ان المشكلة كانت متبادلة.

إن اللورد فيشر الذي كان نبوغه التوجيهي وذاتيته المفرطة شبيهين بما لدى كيتشنر، قد ارتأى فجأة في ١٩ كانون الثاني (يناير) أو قبل هذا التاريخ، ان من الغلط ارسال حملة بحرية إلى

(١) مارتن جيلبرت، **ونستون تشرشل**، المجلد ٣: ١٩١٤ ـ ١٩١٦، **تحدي الحرب** (بوسطن: هوتن ميفلين، ١٩٧١)، ص ٢٣٤.

(٢) مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق**، المجلد ٣ الجزء الأول، تموز ١٩١٤ ـ نيسان ١٩١٥ (بوسطن: هوتن ميفلين، ١٩٧٣)، ص ٣٨٠.

الدردنيل، ولكنه لم يستطع قط أن يشرح أساس هذا النذير، وبالتالي لم يستطع اقناع تشرشل بتغيير النهج.

كان تأييد حملة الدردنيل في البداية إجماعياً، ولكن بعد ذروة الحماسة حدث تحول من الجزر الى المد، وسرعان ما انعكس الاتجاه في غضون أيام.

وقد شرع موريس هانكي، الذي كان يبثه اللورد فيشر شكواه من تشرشل في شهر كانون الثاني (يناير)، يقيم الدليل على معارضته هو أيضاً للحملة ما لم يشترك فيها الجيش. ولما كان هانكي أمهر البيروقراطيين في زمنه، فقد كان أكثر تحسساً من تشرشل نفسه لتيارات الرأي السائدة في قيادة الأميرالية التابعة لتشرشل. ومع حلول منتصف شهر شباط (فبراير) تحقق هانكي من أن رأي الأميرالية قد تحول ضد فكرة القيام بعملية بحرية محض، بالرغم من أن الهجوم كان مقرراً له أن يبدأ في غضون أيام معدودة(*). في ١٥ شباط (فبراير) وزع سير هنري جاكسون، الذي كان قبل شهر مضى قد حث تشرشل على تطبيق خطط الأميرال كاردن فوراً، مذكرة قال فيها ان هجوماً يقتصر على الأسطول «ليس بالعملية العسكرية السليمة»[٦]. وقد شارك في هذا النقد أيضاً الكابتن هيربرت وليم ريتشموند، مساعد مدير العمليات الذي كان قد كتب مذكرة في اليوم السابق على المنوال عينه وأرسل نسخة عنها الى هانكي.

وفي ساعة مبكرة من صباح ١٦ شباط (فبراير) أرسل اللورد فيشر تحذيراً مماثلاً الى تشرشل الذي أصابه الذهول، مما حمله على أن يطلب جلسة طارئة فورية بمن حضر من أعضاء مجلس الحرب التابع لمجلس الوزراء. وقد كان الوضع الرهيب كما يلي: ان أرمادا الأسطول البريطاني المرابطة قرب الساحل التركي كان محدداً لها أن تبدأ الهجوم في غضون ثمان وأربعين الى اثنتين

(*) هذا ما قاله لمجلس الوزراء، وهذا ما قاله لرئيس الوزراء، وقد سجل رأيه في رسائل ومذكرات. وقد كتب في احدى صفحات مفكرته بتاريخ ١٩ آذار (مارس) انه: «منذ اليوم الأول لعرض الاقتراح أنذرت رئيس الوزراء واللورد كيتشنر ورئيس الأركان ولويد جورج وبلفور بأن الأسطول لا يستطيع أن يحقق العبور وأن هذا هو رأي جميع ضباط البحرية»[٣]. والحقيقة هي أن هانكي كان قد أصدر هذه الانذارات، ولكن بعد شهر من الموعد الذي ادعى انه أصدرها فيه. فهو لم يصدرها في ١٣ كانون الثاني (يناير) (عندما قررت اللجنة الوزارية الموافقة على حملة الدردنيل) وإنما في العاشر من شباط (فبراير) عندما كتب رسالة الى بلفور بهذا المعنى[٤]. وفي وقت لاحق تحدث الى اسكويث. وفي ١٣ شباط (فبراير) سجل رئيس الوزراء في مفكرته ما يلي: «تحدثت للتو مع هانكي الذي تستحق آراؤه الاصغاء اليها. انه يرى وبشدة أن العمليات البحرية يجب أن تكون مدعومة بانزال قوة عسكرية كبيرة على البر. وأنا ما فتئت منذ بعض الوقت أرى الرأي نفسه»[٥].

(٣) هـ. هـ. اسكويث **رسائل إلى فنيشيا ستانلي**، أعدها للطباعة مايكل واليانور بروك (اوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة اوكسفورد، ١٩٨٢)، ص ٣٧٤.

(٤) جيلبرت، **تشرشل: المجلد المرافق**، ص ٥٠٠.

(٥) اسكويث، **رسائل**، ص ٤٢٩.

(٦) جيلبرت، **تشرشل: تحدي الحرب**، ص ٢٨٧.

وسبعين ساعة، ولم يكن باستطاعة هذه الأرمادا أن تؤجل هجومها ما دامت باقية في المنطقة، لأن غواصات العدو قد ترسل بسرعة لاغراقها[٧]. أما إذا شرعت هذه الأرمادا في الهجوم فانها ستفشل وفقاً لرأي القيادة البحرية في الأميرالية الذي تبدل فجأة، ما لم ترسل قوة كبيرة من الجيش لدعمها ـ هذه القوة الذي رفض كيتشنر المرة بعد المرة ارسالها والتي، في أية حال، لا يمكن توقع وصولها في الوقت المناسب حتى لو أرسلت فوراً.

تحدث كيتشنر قبل حضوره مجلس الحرب مع ويندهام ديدن، الضابط الذي خدم في الدرك العثماني قبل الحرب وأصبح الآن ضابطاً في المخابرات مقر عمله في لندن، فسأله رأيه في هجوم بحري على الدردنيل. وكان جواب ديدن انه يرى أن خطة كهذه هي في الأساس خطة غير سليمة. وما ان بدأ يشرح رأيه هذا حتى احتد كيتشنر وأوقفه عن الكلام وقال له انه لا يفقه ما يقول وصرفه فوراً.

ومع ذلك فان اللقاء مع ديدن أحدث تبديلاً في تفكير كيتشنر. فبعد هذا اللقاء ببضع ساعات قال كيتشنر لأعضاء مجلس الحرب انه سيوافق على ارسال الفرقة التاسعة والعشرين ـ وهي فرقة الجيش النظامية الوحيدة المتبقية في بريطانيا ـ الى بحر إيجه لمساندة هجوم الأسطول. اضافة الى ذلك يمكن إرسال الجنود الاستراليين والنيوزيلانديين الجدد الذين كانوا قد وصلوا حديثاً الى مصر إذا اقتضت الضرورة. وكانت الخطة، التي استجابت الآن لمتطلبات فيشر وجاكسون وريتشموند وغيرهم، هي أنه ما أن تكسب سفن الأسطول معركة المضائق حتى تتبعها القوات البرية لتحتل الشاطىء المجاور ومن ثم تحتل القسطنطينية. وقد جاء في أسطر كتبت في مفكرة «كانت كلمات اللورد كيتشنر الى وينستون: اعبر المضائق! سأجد الرجال»[٨].

كانت للخطة مثالبها. فإذا كان المدافعون الأتراك لديهم القيادة الكفء والكفاية من الذخيرة فلا بد من هجوم مشترك من قبل الأسطول والقوات البرية. وبدلاً من أن ينتظر الجيش حتى يربح الأسطول المعركة كان عليه أن يساعد في مهاجمة قلاع الدردنيل. ان موريس هانكي المدني رأى هذا الأمر بوضوح، أما قادة الأسطول والجيش فلم يروه.

في ٢٢ شباط (فبراير) أصدرت الأميرالية بلاغاً عاماً يعلن بدء الهجوم على الدردنيل ويصف الهجوم وصفاً تفصيلياً، ونشرت الصحف النبأ مركزة الانتباه على الهجوم ومثيرة التوقعات لدى الرأي العام. ومما قالته جريدة التايمز: «ان القصف من البحر لن يسير بهذا المشروع بعيداً جداً ما لم يترافق مع هجوم من القوات البرية» وقالت محذرة: «ان الشيء الوحيد الذي لا يملك الحلفاء المجازفة به هو فشل هجوم مركز على الدردنيل»[٩].

---

(٧) المرجع نفسه، الصفحتان ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٨) المرجع نفسه، ص ٢٨٨.

(٩) فيوليت بدنهام كارتر، **ونستون تشرشل كما عرفته** (لندن: ايير وسبوتسوود وكولنز، ١٩٦٥)، الصفحتان ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

وأصدر كيتشنر بدوره تحذيراً مماثلاً الى زملائه في مجلس الوزراء. ومع أنه كان في الأصل قد اقترح «التخلي عن القصف البحري إذا لم يكن فعالاً»[١٠] فقد بدل رأيه عندما قدم لويد جورج حججه داعياً الى التمسك بالخطة («إذا فشلنا في الدردنيل ينبغي لنا أن نكون مستعدين فوراً لتجربة شيء آخر») وقد استشهد وزير الحربية في اجتماع مجلس الحرب بتاريخ ٢٤ شباط (فبراير) ببلاغ الأميرالية باعتباره سبب تبديل رأيه. «إن تأثير هزيمة في الشرق سيكون بالغ الخطورة. فلا مجال للتراجع. إن صدور البلاغ العلني قد رتب علينا التزاماً». وقال انه في حالة فشل الأسطول «ينبغي للجيش أن يكمل العمل»[١١].

في أول الأمر اقترح ارسال الأسطول. والآن قرر ارسال الجيش. لقد سمح كيتشنر، دون أن يقصد، بجر بريطانيا خطوة خطوة الى اشتباك كبير في الشرق الأوسط.

(٣)

كان الأتراك يتوقعون من تشرشل أن يهاجم الدردنيل، ولكنهم آنذاك لم تتوفر لهم وسيلة الدفاع عنه. ولم يعلم هذا السر أحد من البريطانيين حتى ويندهام ديدز ـ وهو عادة حسن الاطلاع على الشؤون العثمانية ـ مع أن الألمان كانوا يعرفون السر تمام المعرفة. فعند بدء الحرب، شرعت القوات العثمانية ومستشاروها الألمان بتعزيز القلاع على كلا جانبي مضائق الدردنيل، وإذا بجهودهم تذهب سدى بسبب الافتقار الى الذخائر. وقد علمت برلين في نهاية عام ١٩١٤ وبداية عام ١٩١٥ أن ما هو متوفر من الذخائر في المضائق يكفي لخوض اشتباك واحد فقط، وأن بعض الزوارق الحربية العثمانية لديها من القذائف ما يكفي كلا منها مدة دقيقة واحدة فقط.

خلال الأسابيع الستة التي أعقبت ذلك، تلقت القيادة العليا العثمانية عدداً من تقارير المخابرات التي دلت على أن وقوع هجوم بحري من قبل الحلفاء على المضائق كان وشيكاً. وقد وردت بتاريخ ١٥ شباط (فبراير) ١٩١٥ معلومات مفصلة عن حشد من السفن البحرية البريطانية والفرنسية في شرق البحر الأبيض المتوسط.

صباح ١٩ شباط (فبراير) أطلقت البوارج البريطانية بقيادة الأميرال كاردن القذائف الأولى في الحملة على الدردنيل. وقد رأى السفير الأميركي لدى تركيا أن نجاح القوات الحليفة بدا أمراً محتوماً، وظن سكان القسطنطينية أن مدينتهم ساقطة لا محالة في غضون أيام[١٢].

وبدافع القنوط خطر للباب العالي أن يطلب مساعدة روسيا، عدو تركيا على مدى الزمن. وبعد بدء الهجوم البريطاني بيوم واحد اقترح السفير التركي لدى ألمانيا قيام تحالف

(١٠) المرجع نفسه.

(١١) جيلبرت، **تشرشل: المجلد المرافق**، الصفحتان ٥٥٨ ـ ٥٥٩.

(١٢) آلان مورهيد، **غاليبولي** (نيويورك: كتب بالنتاين، ١٩٥٦)، ص ٥٩.

روسي ـ تركي ـ ألماني: كان اقتراحه أن تعرض تركيا على روسيا حرية المرور في الدردنيل لقاء انتقالها من جانب الى آخر في الحرب[13]. وقد شرح الصدر الأعظم التركي وجهة نظر حكومته في الأمر للسفير الألماني في القسطنطينية فقال: «ينبغي عقد صلح مع روسيا لنتمكن عندئذ من ضرب انكلترا ضربة أشد»[14]. ونقل الألمان الاقتراح الى روسيا ولكنه لم يسفر عن أية نتيجة. وهكذا بدا للأتراك أنه لا مفر من أن يخسروا معركة المضائق.

إن هدير مدافع الأسطول البريطاني عند مدخل الدردنيل كان له صدى سياسي في عواصم بلدان البلقـان ذات المـواقع الاستراتيجية الهامة. ففي أثينا وبوخارست وصوفيا أخذ السياسيون يتحركون متجهين صوب معسكر الحلفاء. وكان جلياً أن هذه البلدان جميعها، وحتى بلغاريا، ستدخل الحرب الى جانب دول التحالف إذا ما نجحت حملة الدردنيل[15]. وكان لويد جورج لا يفتأ يردد حجته القائلة ان بريطانيا قادرة، إذا ما كسبت بلدان البلقان حليفة لها، أن تضع نهاية للحرب عن طريق الزحف عبر امبراطورية النمسا ـ المجر الساخطة، وغزو ألمانيا من الجنوب الخالي نسبياً من وسائل الدفاع.

عندما شرعت سفن الأسطول البريطاني المدعومة بمجموعة فرنسية، إطلاق النار من مدى بعيد صباح ١٩ شباط (فبراير)، لم تكن بطاريات مدفعية الساحل التركية عند مدخل الدردنيل تتمتع بالمدى الكافي للرد على النار. وقد أمر الأميرال كاردن سفنه بأن تقترب أكثر الى الشاطىء بغية الحاق المزيد من الأضرار بتحصينات الشاطىء التركية. في تلك الليلة تبدلت حالة الجو، واضطر الأسطول الى وقف عملياته خمسة أيام بسبب ضعف الرؤية والعواصف الثلجية. ثم استؤنف الهجوم في ٢٥ شباط (فبراير)، وقد وجد رماة البحرية البريطانيون الذين تم انزالهم على البر عند طرف شبه الجزيرة، أن القلاع القائمة عند مدخل المضائق قد هجرت، إذ انسحب الأتراك والألمان الى المضائق نفسها حيث كان تركيز المدفعية للدفاع عن الدردنيل.

أرسلت البعثة البريطانية في صوفيا تقريراً مفاده أن الجيش البلغاري قد يشترك في الهجوم على تركيا. كما أن رئيس وزراء رومانيا ذكر لممثل بريطانيا في بوخارست أن بلاده صديقة للحلفاء، وليس هذا فحسب، بل «ان إيطاليا أيضاً ستتحرك سريعاً»[16]. وفي أوائل آذار (مارس) تلقّى تشرشل، مبتهجاً ومنتشياً، برقية سرية من فينيزيلوس ـ وكان لا يزال رئيساً للوزراء ـ يعد فيها بأن تؤيد اليونان الحلفاء وأن تسهم بثلاث فرق من جيشها لاحتلال غاليبولي، كما أن الملك قسطنطين ذا الهوى الألماني مستعد ـ وفقاً لبرقية فينيزيلوس ـ للانضمام الى الحلفاء[17].

---

(١٣) اولريش ترومبينر، **المانيا والامبراطورية العثمانية ١٩١٤ ـ ١٩١٨** (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، ١٩٦٨)، ص ١٤٢.

(١٤) المرجع نفسه، ص ١٤٦.

(١٥) ل. س. ستافريانوس، **البلقان منذ عام ١٤٥٣** (نيويورك: راينهارك، ١٩٥٨)، ص ٥٦٠.

(١٦) بونهام كارتر، **تشرشل**، ص ٣٦٨.

(١٧) المرجع نفسه، ص ٣٦٩.

كان الجو يعبق برائحة النصر. ومع أن تشرشل كان مصاباً بالأنفلونزا، فقد كان مزهواً. وقال مخاطباً فيوليت اسكويث، ابنة رئيس الوزراء: «أظن أن لعنة ستحل بي لفرط سعادتي، أنا أعرف أن هذه الحرب تزهق الأرواح وتدمر حياة الآلاف كل لحظة ـ ومع ذلك ـ لا يسعني إلا أن أمتّع النفس بكل ثانية أحياها»[١٨].

في ٤ آذار (مارس) تلقى تشرشل برقية من الأميرال كاردن قال فيها انه يمكن توقع وصول الأسطول الى القسطنطينية في نحو أربعة عشر يوماً، إذا سمحت حالة الجو[١٩]. وهكذا قفز مصير الامبراطورية العثمانية بعد الحرب الى رأس جدول الأعمال الدولي، حتى أن الايطاليين، الذين لم يكونوا قد دخلوا الحرب بعد، بدؤوا يطالبون «بحصتهم في تقسيم تركيا الذي سيلي الحرب»[٢٠]. ويبدو أن تشرشل استشعر أن هذه المطالب سابقة لأوانها: ففي رسالة مكتومة الى وزير الخارجية اقترح تشرشل وجوب الاستيلاء على تركيا الأوروبية على أن يملي الحلفاء شروط هدنة تقضي ببقاء آسيا العثمانية في أيدي العثمانيين مؤقتاً على أقل تقدير[٢١].

ظل الأميرال فيشر وحده متشككاً بضعة أيام أخرى. فقد كتب يقول: «كلما ازددت تفكيراً في حملة الدردنيل قلّت رغبتي فيها!»[٢٢]. ولكنه هو أيضاً طرأ تحول على تفكيره عندما كشفت برقيات لاسلكية ألمانية التقطت في ١٠ آذار (مارس)، عن أن ما تبقى من قلاع الدردنيل، ومن ضمنها القلاع الرئيسة المتحكمة بالمضائق، توشك أن تستنفد ما لديها من الذخائر. وهكذا فإن فيشر، بدفق مفاجىء من الحماسة الشديدة اقترح أن يتوجه الى بحر إيجه وأن يتولى شخصياً قيادة الأسطول، لقد بدأ التهافت على اكتساب الفضل في النصر المقبل.

ذات مساء بعد مأدبة عشاء ـ وهي مناسبة اجتماعية نادرة بالنسبة لوزير الحربية ـ تحدثت فيوليت اسكويث الى اللورد كيتشنر فقالت له ان تشرشل هو من يستحق التكريم بالنصر. وقالت: «إذا نجحت عملية الدردنيل فإن ونستون سيكون جديراً بأن ينسب اليه وحده كل الفضل. فقد أظهر الكثير من الشجاعة والثبات في حمل المسؤولية طوال كل التذبذب الذي أبداه فيشر والآخرون». وقد كتبت في مفكرتها أن «اللورد كيتشنر أجاب غاضباً: لا شيء من ذلك ـ فقد كنت دوماً محبذاً بقوة للأمر»[٢٣].

(١٨) المرجع نفسه، ص ٣٦١.
(١٩) جيلبرت، **تشرشل: المجلد المرافق**، ص ٦٢٥.
(٢٠) بونهام كارتر، **تشرشل**، ص ٣٦٨.
(٢١) جيلبرت، **تشرشل: تحدي الحرب**، ص ٣١٥.
(٢٢) المرجع نفسه، ص ٣٢٦.
(٢٣) بونهام كارتر، **تشرشل**، الصفحتان ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

الفصل الرابع

طمع روسيا في تركيا

(١)

كان إلحـاح روسيـا هو الذي دفع كيتشنر وتشرشل الى القيام بحملة الدردنيل، ولكن عندما بدا وكأن الحملة سيحالفها النجاح، دب الفزع في نفس حكومة القيصر الروسي. قد يبدو انتصار الحلفاء في الدردنيل مناسبة للابتهاج، ولكنه سيعني أن القسطنطينية ستقع في أيدي البريطانيين ـ وفجأة انتعشت في أذهان الروس مخاوف وضغائن اللعبة الكبرى التي دامت قرناً من الزمن. وكانت الحكومة الروسية تخشى أن يقرر البريطانيون الاحتفاظ بالقسطنطينية إذا ما استولوا عليها.

بتاريخ ٤ آذار (مارس) ١٩١٥ أرسل وزير الخارجية الروسي، سيرجي سازانوف، برقية سرية الى لندن وباريس متضمنة رسالة من القيصر نقولا الثاني، يطلب فيها إلى الحلفاء أن يسلموا روسيا القسطنطينية والمضائق والأراضي المحاذية لها. ومقابل ذلك وعد القيصر وسازانوف بأن يصغيا بتفهم وتعـاطف الى خطط بريـطانيـا وفرنسا بشأن طموحاتهما الوطنية في مناطق أخرى من الامبراطورية العثمانية وفي أماكن أخرى.

في باريس قوبل الطلب الروسي بشعور من الفزع. فقد كانت الحكومة الفرنسية تخشى أن تصبح روسيا باستيلائها على القسطنطينية منافسة لفرنسا في البحر الأبيض المتوسط، ولذلك حاولت أن ترد على روسيا بعبارات غامضة معبرة عن «حسن النية»[١]. وقد اقترح ديكلاسيه ارجاء البحث في تفاصيل التسوية الاقليمية الى ما بعد مؤتمر الصلح.

أما سير ادوارد غراي فقد زايد على الموقف الفرنسي. فهو بتعاطفه مع حساسيات حلفاء بلاده، وبما أنه كان قد بدّد شكوك فرنسا في نيات بريطانيا ازاء سورية، تحرك الآن لتبديد الشكوك

---

(١) كريستـوفـر م. اندرو وا. س. كانيا، فورستنر، **ذروة التوسع الامبراطوري الفرنسي**: ١٩١٤ ـ ١٩٢٤ (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، ١٩١٨)، ص ٧٣.

الروسية في نيات بريطانيا ازاء الدردنيل. ولكنه بذلك فتح صندوق باندورا. فإذا منحت روسيا ما تطلبه قبل انعقاد مؤتمر السلام، سيدفع ذلك فرنسا الى تقديم مطالبها، وسيدفع أيضاً كيتشنر الى تقديم مطالبه. ومع أن غراي كان متنبهاً لهذه الأخطار، فقد كانت الأولوية عنده لطمأنة روسيا. وكان رأي وزارة الخارجية البريطانية أن العناصر الموالية للألمان قد تزعزع موقف وزارة الخارجية في بتروغراد الموالية للحلفاء إذا لم تنل روسيا ما يرضيها في مسألة الدردنيل.

وقد شرح غراي في وقت لاحق كيف أن العناصر الموالية للألمان في البلاط الروسي ـ هذه العناصر التي كان يبدو أنه يخشاها خشية حقيقية ـ ستشوه تصوير العمليات العسكرية البريطانية في الدردنيل إذا لم تحصل روسيا على التطمين البريطاني. قال ان هذه العناصر ستصور الوضع على النحو التالي:

«كانت سياسة بريطانيا دائماً تقضي بإبعاد روسيا عن القسطنطينية والمضائق... وبطبيعة الحال ما زالت هذه هي سياستها. وبريطانيا تريد الآن احتلال القسطنطينية لتحرم روسيا من الحصول عليها في مؤتمر الصلح بعد أن تكون بريطانيا وفرنسا، بمساعدة روسيا، قد تمكنتا من كسب الحرب، وإلا فما الدافع الى إرسال قوات بريطانية الى الدردنيل في وقت تعاني فيه الجيوش البريطانية والفرنسية من ضغوط شديدة في فرنسا الى حد أن الجيوش الروسية تقدّم تضحيات لا مثيل لها من أجل انقاذهم؟»[٢].

في أي حال، كان غراي واسكويث، زعيما حكومة حزب الأحرار، يميلان الى تقديم هذا التنازل الذي طلبته حليفة بريطانيا في الحرب. وبما أنهما من ورثة التقليد السياسي الذي بدأه غلادستون، فقد كانا معاديين لتركيا متعاطفين مع الأماني الروسية، وكان بوسعهما أن ينوها بالاستنتاج الذي توصلت اليه لجنة الدفاع الامبراطوري في عام ١٩٠٣ خلال حكومة المحافظين، وهو أن استبعاد روسيا من القسطنطينية، لم يعد يمثل مصلحة بريطانية حيوية. وقد كتب رئيس الوزراء عند بدء الحرب العثمانية قائلاً: «قليلة هي الأشياء التي تمنحني سروراً أكبر من سروري برؤية الامبراطورية التركية تختفي نهائياً من أوروبا ورؤية القسطنطينية وقد أصبحت روسيةً (وهذا ما أظن أنه قدرها المناسب) وإذا لم يكن هذا ممكناً فلتكن محايدة»[٣]. وفي آذار (مارس) ١٩١٥ عندما أثيرالموضوع، كتب مبدياً رأيه في القسطنطينية والمضائق فقال: «لقد أصبح واضحاً تمام الوضوح أن روسيا عازمة على ضمها الى أراضيها الأوروبية»، وأضاف أنه: «شخصياً كان ولا يزال محبذاً لمطلب روسيا...»[٤].

(٢) فايكونت غراي اوف فالودين، **خمس وعشرون سنة ١٨٩٢ ـ ١٩١٦** (لندن: هودر وستوتن)، المجلد ٢، الصفحتان ١٨٠ ـ ١٨١.

(٣) هـ. هـ. اسكويث، **رسائل إلى فنيشيا ستانلي**، اعدها للطباعة مايكل واليانور بروك (اوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة اوكسفورد، ١٩٨٢)، ص ٣٠٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٦٣.

إن ما كان يجهله بقية أعضاء مجلس الوزراء هو أن سير ادوارد غراي قد رتب فعلاً التزاماً على بلاده بتأييده سيطرة روسيا في نهاية الأمر على القسطنطينية، إذ كان قدم وعوداً بهذا المعنى الى الحكومة الروسية في عام ١٩٠٨[٥]. وكانت وجهة نظره أن الاستجابة لطموحات روسيا المشروعة في المضائق ستمنعها من الالحاح على مطالبها في بلاد فارس وشرق أوروبا ومضائق أخرى.

وكان غراي قبل ذلك بشهر قد رفض تشجيع انقلاب مناوىء لألمانيا في القسطنطينية بهدف إخراج تركيا من الحرب، لأن حدوث هذا الانقلاب سيمنعه من تقديم القسطنطينية الى روسيا[٦]. ان ما فعله انما كان منسجماً مع القرارات البريطانية بشأن اليونان ودول البلقان، أي عدم ادخالها الحرب الى جانب الحلفاء لأن ذلك كان من شأنه، حسب قول غراي، «إضعاف صدق عزم روسيا في الحرب»[٧].

وقد خالفه تشرشل الرأي. فقد كان معارضاً لاصدار أي شيء أكثر من بيان عام بالتعاطف مع الطموحات الروسية، وكتب الى غراي ليخبره أنه أصدر تعليمات الى الأميرالية بأن تتولى اعداد دراسة عن كيفية تأثير السيطرة الروسية على القسطنطينية والمضائق على المصالح البريطانية. وقد حث تشرشل على التطلع الى ما وراء هموم الحرب الآنية، وقال محذراً: «هذه الحرب ليست نهاية التاريخ الانكليزي»[٨].

وبالرغم من مشورة تشرشل فإن الحكومة البريطانية وافقت، بدافع الخوف المسيطر عليها من أن تسعى روسيا الى صلح منفرد، على الشروط التي اقترحها سازانوف والقيصر الروسي. وقد قبلت بريطانيا (في ١٢ آذار (مارس) ١٩١٥) رسمياً، وحذت فرنسا حذوها متأخرة (في ١٠ نيسان (ابريل) ١٩١٥) الاقتراح السري، مؤكدتين أن قبولهما هذا الاقتراح مشروط بتحقيق رغباتهما بشأن الامبراطورية العثمانية ومشروط أيضاً بمتابعة الدول الثلاث الحرب حتى نهايتها المظفرة.

وفي مذكرة بريطانية اضافية، تحمل تاريخ ١٠ آذار (مارس) ١٩١٥، قدم غراي الى سازانوف عدداً من الملاحظات والتحفظات البريطانية الأخرى. فقد نوه بأن روسيا كانت أصلاً قد طلبت القسطنطينية والمضائق بينما هي تطلب الآن الأراضي المحاذية أيضاً. وأشار غراي الى أنه قبل أن تتاح لبريطانيا فرصة اتخاذ قرار بشأن أهدافها الخاصة في الحرب، «أخذت روسيا تطالب بوعد قاطع بتلبية رغباتها في ما يتعلق بما هو في الحقيقة أثمن غنائم الحرب كلها». وقد أكد غراي تكراراً أن الحكومة البريطانية إذ توافق على مقترحات القيصر الروسي، إنما تقدم أكبر دليل ممكن

---

(٥) مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل**، المجلد ٣، ١٩١٤ ـ ١٩١٦، **تحدي الحرب** (بوسطن: هوتن ميفلين، ١٩٧١)، ص ٣٢٠.

(٦) المرجع نفسه.

(٧) اسكويث، **رسائل**، ص ١٨٣ حاشية ٥.

(٨) جيلبرت، **تشرشل: تحدي الحرب**، ص ٣٢٠.

على صداقتها وإخلاصها لروسيا. وقد كتب يقول انه يستحيل على أية حكومة بريطانية أن تفعل أكثر مما يفعله اسكويث لتلبية رغبات روسيا، لأن الالتزام الذي أخذه على عاتقه للتو «ينطوي على تراجع تام عن السياسة التقليدية لحكومة جلالته، ويتعارض تعارضاً مباشراً مع الآراء والمشاعر التي كانت سائدة في انكلترة في وقت ما والتي لم تنطفىء حتى الآن».

ومضى غراي شارحاً ما هو متوقع من روسيا أن تقدمه لقاء ذلك، فأوضح أن حكومته لم تحدد بعد معظم أهدافها الخاصة في الشرق، غير أن أحد هذه الأهداف هو إعادة النظر في الاتفاقية الانكليزية ـ الروسية لعام ١٩٠٧ على نحو يعطي بريطانيا ذلك الثلث من بلاد فارس الذي ما يزال محايداً إضافة الى الثلث الذي تحتله فعلاً. وأكد أيضاً أن الاتفاق الذي توصلا اليه للتو بشأن القسطنطينية ينبغي أن يظل سرياً.

وقد أراد غراي أن يبقى هذا الاتفاق سرياً، لأنه كان يخاف من أثره على الرأي العام لمسلمي الهند إذا ما أعلن، إذ كان يخشى أن يرى مسلمو الهند في بريطانيا طرفاً مشاركاً في تدمير آخر دولة اسلامية مستقلة ذات أهمية. ولذلك قال غراي للروس انه سيعمد، إذا نشر الروس مضمون الاتفاقية، الى التصريح علناً «بأن حكومة جلالته اشترطت طوال المفاوضات أن تظل الأماكن الاسلامية المقدسة وشبه الجزيرة العربية في كل الظروف تحت سيطرة دومنيون اسلامي مستقل»[٩].

وكان رأي غراي أن على بريطانيا أن تعوض المسلمين عن تدمير الامبراطورية العثمانية بإقامة دولة اسلامية في مكان آخر، وانه من وجهة نظر دينية، وبوجود مكة والمدينة، لا يمكن التفكير بإقامة هذه الدولة سوى في شبه الجزيرة العربية. إضافة الى ذلك، كان من السهل إعطاء هذا الوعد، لأن شبه الجزيرة العربية كانت أرضاً لا تشتهيها أية دولة من الدول الكبرى. وقد كتب ديفيد لويد جورج في وقت لاحق يقول: «ما من أحدٍ خطر له أن قوات أجنبية ستحتل أي جزء من شبه الجزيرة العربية. فهي بلاد قاحلة الى حد انها لا تستحق جهد أية دولة تبحث عن فريسة لاحتلالها باعتبارها مرعى دائماً»[١٠]. ولم يكن معروفاً آنذاك أن هذه الأرض تحتوي على مخزون هائل من النفط.

(٣)

بيد أن شبه الجزيرة العربية لعبت دوراً في الخطط التي أعدها وزير الحربية البريطاني لفترة ما بعد الحرب. ان مطالب روسيا بتاريخ ٤ آذار (مارس) ١٩١٥ وقبول بريطانيا هذه المطالب بتاريخ ١٢ آذار (مارس) قد جعلت اللورد كيتشنر يوجه مذكرة الى مجلس الوزراء في ١٦ آذار

---

(٩) ايلي كدوري، **في المتاهة الانكليزية ـ العربية: مراسلات مكماهون ـ الحسين ومترجموها ١٩١٤ ـ ١٩٣٩** (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٧٦)، الصفحتان ٢٢ ـ ٢٣.

(١٠) ديفيد لويد جورج، **مذكرات مؤتمر الصلح** (نيوهافن: مطبعة جامعة بيل، ١٩٣٩)، المجلد ٢، ص ٦٦٩.

(مـارس) محذراً من أن «العداوات والضغائن القديمة التي سكنت بسبب الأزمة الراهنة في أوروبا قد تنبعث بعد الحرب»، وان بريطانيا قد تجد نفسها «في حالة عداء مع روسيا أو مع فرنسا أو مع كلتيهما»(١١). ان ما كان يتوقعه لم يكن أقل من احياء اللعبة الكبرى. وهو قد حث أيضاً على خلق مملكة مستقلة في شبه الجزيرة العربية تشتمل على مكة والمدينة على أن تكون تحت رعاية بريطانيا. فقد كان أمراً جوهرياً أن تكون كذلك لاعطاء بريطانيا السيطرة على القيادة الروحية للعالم الاسلامي.

كان مخطط كيتشنر الشامل للشرق الأوسط في زمن ما بعد الحرب، يقضي بأن تسيطر بريطانيا انطلاقاً من جزيرة قبرص التي كانت قد ضمتها حديثاً، على طريق برية ملائمة الى الهند، وآمنة من أي محاولة فرنسية أو روسية لقطع هذه الطريق. وبموجب خطة وزير الحربية، كان على بريطانيا أن تستولي على اسكندرون(*)، وهي مرفأ طبيعي كبير على البر الآسيوي مقابل قبرص، ومن ثم بنـاء خط حديدي يمتد منها الى ولايات بلاد الرافدين (ما أصبح الآن العراق)، هذه الولايات التي يجب على بريطانيا أن تستولي عليها أيضاً. وكان هناك اعتقاد عام (مع أنه لم يكن مدعـوماً بالبرهان) ان ولايات بلاد الرافدين تحتوي على احتياطي كبير من النفط، وقد اعتبر تشرشل والأميرالية هذا الاحتياطي أمراً هاماً. وكان كيتشنر وغيره يعتقدون أيضاً بأن أراضي بلاد الرافدين العريقة والتي ترويها مياه دجلة والفرات يمكن تنميتها لانتاج محاصيل زراعية وافرة. ولكن كيتشنر كان يرى أن الميزات الرئيسة لاقتراحه هي ميزات استراتيجية. فخط السكة الحديدية البريطاني الممتد من البحر الأبيض المتوسط الى أعلى الخليج الفارسي، سيمكن القوات من الانتقال الى الهند ومنها بسرعة. كما أن المساحة العريضة من الأرض التي تملكها بريطانيا والتي سيجتازها الخط الحديدي، ستوفر درعاً يحمي الخليج الفارسي ويحمي الطريق الى الهند أيضاً. وكان يخشى أن تستولي روسيا على هذه الأرض إذا فشلت بريطانيا في الاستيلاء عليها.

لقـد أعـد سير آرثر هيرتزل، من وزارة شؤون الهند، مذكرة مماثلة في الوقت عينه تقريباً مع اختلاف واحد هام، إذ انه حث على دمج ولايات بلاد الرافدين في امبراطورية الهند(١٢). وكان يرى في هذه الولايات منطقة يمكن ريها وجعلها منطقة غنية على يد معمرين من الهند. وبموجب خطته كان سيعهد بإدارة المنطقة الى حكومة الهند وتكون الولاية عليها لوزارة شؤون الهند. وقد بدا واضحاً أكثر فأكثر أن في لندن قوتين متنافستين تصارع احداهما الأخرى من أجل حصة من الامبراطورية العثمانية؛ وهاتان القوتان هما المندوب السامي البريطاني في القاهرة ونائب الملك البريطاني في سيملا.

ومما دعم مذكرتَيْ هيرتزل وكيتشنر الاعتقاد لدى معظم أعضاء الحكومة انه صار في مصلحة

---

(١١) جيلبرت، **تشرشل**: **تحدي الحرب**، ص ٣٤٩.

(*) موقعها في أقصى جنوب ما هو الآن تركيا قرب حدود ما هي الآن سورية.

(١٢) بريتون كوبربوش، **بريطانيا والهند والعرب ١٩١٤ ـ ١٩٢١** (بيركلي ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٧١)، الصفحات ٤٠ ـ ٤٢.

بريطانيا أن تقسم الامبراطورية العثمانية وأن تحصل على قطعة كبيرة منها. وكان رئيس الوزراء هو الوحيد عملياً في رؤيته للحاجة إلى تفحص هذا الاعتقاد بدقة. بيد أنه أقرّ بأن السياسيين أمثال تشرشل، الذين يشعرون بأنه ينبغي لبريطانيا أن تخرج من الحرب بمكاسب تعادل مكاسب حلفائها، إنما يتكلمون بلسان الجميع في هذا الموضوع.

فقد كتب اسكويث يقول:

«أعتقد، في هذه اللحظة، انني وغراي الوحيدان اللذان تساورهما الشكوك والريب في مثل هذه التسوية. فكلانا نعتقد أن أفضل شيء للمصلحة الحقيقية لمستقبلنا الخاص هو أن نتمكن، عند انتهاء الحرب، من القول... اننا لم نأخذ شيئاً ولم نكسب شيئاً. ولا أقول هذا من وجهة نظر أخلاقية وعاطفية فحسب... بل من منطلق اعتبارات مادية محض. فالاستيلاء على بلاد الرافدين، مثلاً ـ مع اسكندرون أو من دونها... يعني انفاق الملايين على الري والتنمية بغير مردود فوري أو مبكر، والاحتفاظ بجيش كبير من البيض والملونين في بلد غير مألوف، ومعالجة مختلف المسائل الادارية المعقدة، هذه كلها أسوأ من كل ما تعرضنا له في الهند، ثم هنالك عش الزنابير المؤلف من القبائل العربية»[١٣].

وقد قال رئيس الوزراء لأعضاء مجلس وزرائه انهم عندما بحثوا مستقبل الأراضي العثمانية كان «بحثهم أشبه بما يدور بين عصبة من القراصنة»[١٤]. ولكن كان مما ينسجم مع طبعه انه لم يتخذ موقفاً ضدهم. ان ما قاله لمجلس الوزراء هو انه مع تعاطفه مع رأي غراي القائل: «ان لدينا من المناطق قدر ما نستطيع أن نحافظ عليه»، فإنه لا يعتبر نفسه وزملاءه «وكلاءَ أحراراً» يحق لهم أن يمتنعوا عن أخذ المزيد. فإذا «ما تركنا الدول الأخرى تتهافت على تركيا دون أن نأخذ شيئاً لأنفسنا» فلا نكون قائمين بواجبنا[١٥].

في المراسلات التي شكلت اتفاقية القسطنطينية، كانت روسيا في الواقع قد تحدّت الدول الغربية أن تحدد مطالبها الاقليمية. وقد قبل اسكويث التحدي: فقد عين مجموعة من مختلف الوزارات برئاسة دبلوماسي مخضرم، هو سير موريس دو بونسين، لدراسة المسألة وتقديم توصيات بشأن ما ينبغي لبريطانيا ان تطلب عند تسوية الصلح العثمانية.

كانت هنالك خطوة كبرى أخرى قد اتخذت ومضت الى حد كبير دون أن يلحظها أو يبحثها أحد. ففي الأيام المئة بين نشوب الحرب مع ألمانيا ونشوب الحرب مع الامبراطورية العثمانية، كانت بريطانيا قد قلبت رأساً على عقب سياستها الخارجية التي انتهجتها على مدى أكثر من قرن بتخليها عن أي التزام بالمحافظة على سلامة وحدة أراضي الامبراطورية العثمانية. أما الآن،

---

(١٣) اسكويث، **رسائل**، ص ٥١٠.

(١٤) المرجع نفسه، ص ٤٦٩.

(١٥) مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق**، الجزء ١ تموز ١٩١٤ ـ نيسان ١٩١٥ (بوسطن: هوتن ميفلين، ١٩٧٣)، ص ٧١٦.

وبعد انقضاء مئة وخمسين يوماً على نشوب الحرب العثمانية فقد تحولت حكومة اسكويث الى الرأي القائل ان تقسيم الامبراطورية العثمانية هو بالتأكيد أمر مرغوب فيه وان بريطانيا ستفيد من المشاركة فيه.

(٤)

ان ما دفع حكومة اسكويث الى التخطيط لتجزئة الامبراطورية العثمانية هو مطالبة روسيا بالقسطنطينية. وكان اللورد كيتشنر قد توقع هذه المطالبة منذ نشوب الحرب. وقبل شهور من تعيين اسكويث اللجنة الوزارية برئاسة الدبلوماسي سير موريس دو بونسين لتحديد أهداف بريطانيا في الشرق الأوسط بعد الحرب، كان كيتشنر قد شرع في استقصاءات غير رسمية على غرار ذلك، وتابع أعوانه القيام بهذه الاستقصاءات قبل وخلال وبعد انتهاء أعمال لجنة دو بونسين.

وقد استعان كيتشنر بجهاز موظفيه السابق في القاهرة لتوضيح تفاصيل خططه بشأن الشرق الأوسط بعد الحرب، مع انتباه خاص الى احتمال استئناف روسيا وفرنسا عداوتهما التقليدية لبريطانيا في ذلك الجزء من العالم.

والظاهر أن أوزوالد فيتز جيرالد، معاون كيتشنر، كتب الى ستورز طالباً ما لديه من قول بشأن دور فلسطين بعد الحرب، وما لهذا الدور من علاقة بالموقف الفرنسي و/أو الروسي الى الشمال من فلسطين. كانت تلك احدى المرات الأولى التي دخلت فيها الصهيونية ـ حركة إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ـ مجال التكهنات البريطانية في زمن الحرب. وقد أجاب ستورز في نهاية عام ١٩١٤ فقال:

«في ما يخص فلسطين، افترض أنه مع عدم رغبتنا بطبيعة الحال في أن نأخذ على عاتقنا أعباء مسؤوليات جديدة كالتي سيفرضها علينا ضم أراضٍ، فنحن، كما أفهم، كارهون لاحتمال حدوث تقدم روسي جنوباً الى سورية، أو لاحتمال امتداد زائد عن الحد للحماية الفرنسية الحتمية في لبنان الخ. ستكون فرنسا جاراً أفضل من روسيا، ولكننا لا نستطيع أن نركن الى دوام أي وفاق، مهما كان ودياً، بعد زوال الجيل المشبع بذكريات الحرب. ان الأفضل لنا هو وجود دولة حاجزة، ولكن هل نستطيع ايجادها؟ لست أرى عناصر من أهل البلاد يمكن أن ننشىء منها مملكة فلسطينية اسلامية. ان الدولة اليهودية هي، نظرياً، فكرة جذابة. ولكن اليهود، مع انهم يشكلون أغلبية في القدس نفسها، هم أقلية ضئيلة في فلسطين عامة، ويشكلون في الحقيقة نحو سدس مجموع السكان».

بعد أن درس ستورز البدائل استنتج أن المقاربة الأكثر جاذبية هي ضم فلسطين ودمجها في مصر. وقد ختم جوابه قائلاً: «أرجو أن تذكرني أمام القائد. ان المصريين يأملون في أن يواصل توجيه مصيرهم من بعيد»[١٦].

---

(١٦) كيو، مكتب السجل العام. أوراق كيتشنر ٣٠/٥٧ ٤٥ الوثيقة ٧٣..

وقد عاد ستورز فكتب في بداية آذار (مارس) ١٩١٥ مقترحاً أن يعود كيتشنر الى فكرة «منصب جديد بصفة نائب للملك في شمال أفريقيا أو في الشرق الأدنى تتبعه مصر والسودان والمنطقة الممتدة من عدن الى اسكندرون»[١٧]. فذلك، في رأيه، سيوفر لكيتشنر بديلاً جذاباً لمنصب نائب الملك في الهند. في واقع الأمر كان ستورز يقترح تنظيم معظم العالم الناطق بالعربية في اتحاد كونفدرالي يكون محمية بريطانية يحكمها كيتشنر من القاهرة[١٨].

ان وزير الحربية قد استند في تطويره سياسة بريطانيا الشرق أوسطية، الى اقتراح ستورز. ففي ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ كتب الى سير ادوارد غراي قائلاً انه يجب اقناع الفرنسيين بالتخلي عن اهتمامهم التقليدي بسورية، بإعطائها لقاء ذلك حصة أكبر في شمال أفريقيا بعد الحرب، أما سورية فيجب أن تكون مستقلة اسمياً تحت حماية بريطانيا ويجب أن تنضم الى شبه جزيرة العرب تحت القيادة الروحية لخليفة عربي. (كانت هذه المسألة التي تناولتها مراسلات كيتشنر مع الحسين، شريف مكة، قبل ذلك بشهور).

في وقت لاحق اقترح كيتشنر على غراي امكانية بدء مفاوضات مع القادة الناطقين بالعربية دون اطلاع الحكومة الفرنسية. ولكن اللورد كرو، وزير الدولة لشؤون الهند، أبلغ غراي ان هذا النهج لن يكون «قابلاً للتطبيق»[١٩]. في أية حال اعتقد كيتشنر وستورز وسير مارك سايكس، عضو مجلس العموم عن حزب المحافظين الذي انضم الى حاشية كيتشنر في عام ١٩١٥، اعتقدوا جميعاً خطأً انه يمكن اقناع الفرنسيين بالتخلي عن اهتمامهم بسورية (ما عدا المناطق المسيحية في جبل لبنان، حيث سيكون وجودهم، في رأي ستورز، أمراً «محتماً»)[٢٠].

أما الشعوب الناطقة بالعربية، فقد كان فعل ايمان لدى المسؤولين البريطانيين المتعاملين مع الشؤون الشرقية، منذ زمن طويل، ان هذه الشعوب غير قادرة على تحقيق استقلال حقيقي. ان جيرترود بل، وهي أشهر الرحالة البريطانيين الى الأراضي العربية قبل الحرب، قد كررت ما كان يعتبر أمراً جلياً عندما كتبت قائلة: «العرب لا يستطيعون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم»[٢١]. و«الاستقلال» للمناطق الناطقة بالعربية، كما ورد على ألسنة المسؤولين البريطانيين خلال أحاديثهم في أثناء الحرب، كان يعني فقط الاستقلال عن الامبراطورية العثمانية، وكانت في ذلك اشارة الى أن هذه المناطق ستدور في فلك دولة أوروبية ما[٢٢].

---

(١٧) المرجع نفسه، ٣٠/٥٧ الوثيقة ق.ق. ٧١٨.

(١٨) كدوري، **المتاهة الانكليزية ـ العربية**، ص ٣٣.

(١٩) المرجع نفسه، الصفحتان ٤٩ ـ ٥٠.

(٢٠) المرجع نفسه، ص ٣٤.

(٢١) هـ. ف. ف. وينستون، **جيرترود بل** (لندن: جوناثان كيب، ١٩٧٨)، ص ١٦٥.

(٢٢) ماريان كنت، «تركيا الآسيوية ١٩١٤ ـ ١٩١٦» في: ف. هـ. هنسلي (تحرير)، **السياسة الخارجية البريطانية في عهد سير ادوارد غراي** (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٧٧)، ص ٤٤٥.

ظل كيتشنر وزملاؤه طوال السنتين التاليتين دائبين في العمل من أجل خطتهم. وبتاريخ ٢٦ آب (أغسطس) ١٩١٥ كتب زميل الفيلد مارشال، ريجينالد وينغيت، حاكم السودان العام، الى حاكم الهند العام، قائلاً: «أرى أنه ليس بالأمر المستحيل أن يقوم في وقت ما من المستقبل اتحاد فيدرالي لدول عربية شبه مستقلة بتوجيه وتأييد أوروبيين، وتكون هذه الدول مرتبطة مع بعضها بعضاً على أرضية عرقية ولغوية، وتكون مدينة بالولاء الروحي لرأس عربي، وتتطلع الى بريطانيا على أنها ولية أمرها وحاميتها»[٢٣].

وقد وقف وينغيت في طليعة العاملين من أجل تعيين خليفة عربي، فأخذ يراسل مرشح كيتشنر لهذا المنصب ـ أي الحسين حاكم مكة والمدينة ـ عن طريق زعيم ديني عربي في السودان هو سير سيد علي الميرغني. وقد وضع الكابتن سايمز، سكرتير وينغيت الخاص، مذكرة تفصيلية تشرح خطة الاتحاد العربي التي ستكون الخلافة جزءاً منها. وقدم ستورز مذكرة أخرى تأييداً للخلافة العربية بتاريخ ٢ أيار (مايو) ١٩١٥. ان جيلبرت كلايتون، رئيس الاستخبارات في القاهرة، بتأييده خطة استيلاء بريطانيا على سورية ونقل الخلافة الى شبه الجزيرة العربية، جعل الأمر يبدو وكأن أصواتاً كثيرة تحث على تطبيق الخطة، في حين أنه لم يكن هناك في الحقيقة سوى فئة واحدة تتكلم، ولكن بأصوات عديدة[٢٤].

وأما في لندن، فقد شرح اللورد كيتشنر لزملائه ـ ومن ضمنهم ممثل حكومة الهند التي كان كيتشنر قد أفزعها قبل شهور بمراسلاته مع الشريف حسين ـ السبب الذي يجعل نقل الخلافة أمراً مركزياً في استراتيجيته لعالم ما بعد الحرب. وقد ذكر اللورد كرو، في اجتماع عقدته لجنة الحرب المنبثقة عن مجلس الوزراء بتاريخ ١٩ آذار (مارس) ١٩١٥ أن هناك وجهتي نظر مختلفتين في وزارة شؤون الهند بشأن مستقبل الامبراطورية العثمانية. فالدائرة السياسية في الوزارة تريد التضحية بتركيا لمصلحة شبه الجزيرة العربية، بينما تريد الدائرة العسكرية أن تجعل تركيا قوية أكثر ما يمكن لتكون حاجزاً في وجه أي تهديد روسي محتمل. وقد جاء في محضر الاجتماع:

«اعترض اللورد كيتشنر على خطة الدائرة العسكرية، وقال ان الأتراك سيتعرضون دائماً للضغط من جارتهم روسيا القوية، وينتج عن ذلك أن الخلافة قد تقع الى حد بعيد تحت السيطرة الروسية، وقد يفرض النفوذ الروسي نفسه بصورة غير مباشرة على مسلمي الهند. أما إذا نقلت الخلافة الى شبه الجزيرة العربية فستبقى الى حد بعيد تحت نفوذنا»[٢٥].

وقد رأت وزارة الخارجية البريطانية أن التدخل في الشؤون الدينية الاسلامية أمر يجانب

(٢٣) كدوري، **المتاهة الانكليزية ـ العربية**، ص ٤٣.

(٢٤) المرجع نفسه، ص ٤١.

(٢٥) س. ج. لاو وم. ل. دوكرويل، **سراب السلطة**، المجلد ٣: «الوثائق»، **السياسة الخارجية البريطانية ١٩٠٢ ـ ١٩٢٢** (لندن وبوسطن: روتلدج وكيغان بول، ١٩٧٢)، الصفحتان ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

الحكمة. وذهبت وزارة شؤون الهند الى أبعد من ذلك فوصفت هذا التدخل بأنه خطر. ولكن وزارة الخارجية لم تشأ، ووزارة شؤون الهند لم تستطع أن تتغلب على رأي هيربرت كيتشنر. فقد كان أكثـر من وزيـر للحربية، وأكثر من عضو في مجلس الوزراء، وأكثر من متمرس في الشؤون الافريقية والآسيوية، وأكثر من كونه أعظم جندي في الامبراطورية. لقد كان أسطورة حية في غرب وشرق السويس. كان كيتشنر الخرطوم، وعندما أشرفت حياته العملية على المغيب كان هذا الجندي العتيق الطويل القامة قد ألقى بظله المديد على مستقبل الشرق الأوسط(*).

(*) هذه الصورة استخدمها اللورد بيفر بروك.

تحديد أهداف بريطانيا في الشرق الأوسط

لقد جرى تعيين لجنة دو بونسين ـ المجموعة الوزارية التي أوجدها اسكويث لتقديم النصح الى مجلس الوزراء بشأن ما ينبغي لبريطانيا أن تريده في الشرق الأوسط ـ بتاريخ ٨ نيسان (ابريل) ١٩١٥، ووضعت هذه اللجنة تقريرها بتايخ ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩١٥. كانت اللجنة مؤلفة من ممثل عن كلٍ من وزارة الخارجية، والأميرالية، ووزارة شؤون الهند، والوزارات الأخرى ذات العلاقة. وكانت وزارة الحربية التي يرأسها كيتشنر ممثلة في هذه اللجنة بالجنرال سير تشارلز كالويل، المدير العام للعمليات العسكرية. وإضافة اليه عين كيتشنر ممثلاً شخصياً له في اللجنة هو سير مارك سايكس، (هو غير ممثل وزارته). وعن طريق سايكس سيطرت وزارة الحربية على أعمال اللجنة. وظل سايكس في ما بعد البيروقراطي اللندني المكلف بمسؤولية شؤون الشرق الأوسط طوال الحرب.

إن سايكس الثري الكاثوليكي المذهب المنتمي الى حزب المحافظين والحائز على لقب بارون والبالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً، كان قد انتخب عضواً في مجلس العموم عام ١٩١١. وخلال دراسته في كامبريدج وبعدها، سافر على نطاق واسع في القسم الآسيوي من تركيا ونشر مقالات عن رحلاته، مما جعله أحد خبراء حزب المحافظين في الشؤون العثمانية، ولكن بما أن الشؤون العثمانية لم يكن لها دور يذكر في السياسة البريطانية بين عامي ١٩١١ و١٩١٤، وبما أن حزبه لم يكن في الحكم، لم يكن سايكس معروفاً معرفة جيدة لدى الرأي العام ولدى زملائه السياسيين على حد سواء.

وقد كان سايكس نتاج خلفية غريبة. فهو الابن الوحيد لزواج تعس: فقد كانت أمه المحبة للمرح الجامحة الأهواء وأبوه العجوز القاسي، يعيشان منفصلين. وعندما بلغ الثالثة من عمره تحولت أمه الى الكاثوليكية فصار هو أيضاً كاثوليكياً. وفي السابعة من عمره اصطحبه أبوه في رحلة الى الشرق. وقد ظل مذهبه الديني ورحلاته الى الشرق تملك عليه مشاعره طوال حياته.

حياته الدراسية كانت مزعزعة. فقد كان ينتقل من مدرسة الى أخرى، ومرت أوقات لم يكن يذهب

فيها الى المدرسة اطلاقاً، وأمضى سنتين في كلية يسوع، جامعة كامبريدج، ولكنه لم يستمر لنيل الشهادة الجامعية. لم يكن مستقراً على حال، وعقاراته الشاسعة التي ورثها واسطبلاته لتربية الخيول لم تحملاه على البقاء في وطنه. وقد تجول في الشرق وأمضى أربع سنين ملحقاً في السفارة البريطانية في القسطنطينية. وكان يقابل بالترحاب في كل مكان بسبب مواهبه، إذ أنه كان رسام كاريكاتور وبارعاً في تقليد حركات الآخرين، وفي الأمرين كاد يبلغ المؤهل المهني. لقد كان ظريفاً ويصادق الناس بسهولة. كان يعتنق الآراء بقوة ويبدلها بسرعة.

عندما وقعت الحرب بذل سايكس جهداً للعثور على عمل يستفاد فيه من خبرته في شؤون الشرق الأوسط. ففي صيف ١٩١٤ كتب رسالة الى ونستون تشرشل يطلب فيها عملاً «في الموقع» لكي يشتغل ضد تركيا، وعرض في رسالته «أن ينشىء فرقة من أوغاد أهل البلاد، وأن يربح النبلاء الى جانبه، وأن يقوم بأي عمل غريب آخر». وقال في رسالته: «أعرف انك لن تظنني انساناً يسعى لمصلحة شخصية ان قلت لك انني أضع بتصرفك كل ما أملكه من معرفة بالاتجاهات والامكانات المحلية»[1]. ولكن إما أنه لم يكن لدى تشرشل منصب لهذا الرجل أو كان لديه منصب ولم يعرضه عليه.

وقد وقع سايكس في فلك كيتشنر نتيجة لقاء بينه وبين أوزوالد فيتز جيرالد، صديق الفيلد مارشال الحميم وسكرتيره العسكري الشخصي. وقد دبر فيتز جيرالد أمر تعيين سايكس في وزارة الحربية في مطلع عام ١٩١٥ حيث خدم تحت اشراف كالويل في إعداد كتيبات معلومات للجنود في منطقة البحر الأبيض المتوسط. وخلال وجوده في وزارة الحربية أنشأ صداقة خاصة مع المدعو ج. ماكدونو، وهو كاثوليكي مثله وكان زميله في الدراسة في مدرسة واحدة. وقد أثبت ماكدونو بصفته مديراً للمخابرات العسكرية انه حليف بالغ القيمة في مسيرة حياة سايكس العملية ودفعها الى الأمام.

وبعيد تعيين سايكس في وزارة الحربية أسندت له مهمته في لجنة دوبونسين. كان كيتشنر بحاجة الى سياسي شاب على دراية بالشرق الأوسط، وكان سير مارك سايكس أحد حفنة من أعضاء البرلمان الذين يعرفون المنطقة. وبما أنه كان في حزب المحافظين، فقد شاطر كيتشنر الكثير من مشاعره وتحاملاته. لقد كان الاثنان من الوجوه كافةً عضوين في نادٍ واحد[*].

ومع ذلك كان سايكس عند تعيينه يكاد لا يعرف كيتشنر، ولم يتح له قط أن يعرفه معرفة أفضل. وكانت التوجيهات التي تلقاها سايكس تقضي بأن يأتي كل مساء الى فيتز جيرالد ليقدم له تقريراً وافياً عن مباحثات لجنة دو بونسين. وكان فيتز جيرالد يخبره لاحقاً ما الذي يريد كيتشنر منه أن يقوله أو يفعله في الاجتماعات التالية. وقد أخفقت محاولاته القليلة لرؤية الرجل الأسطورة

---

(١) مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل، المجلد المرافق**، المجلد ٣ الجزء ١: تموز ١٩١٤ ـ نيسان ١٩١٥ (بوسطن: هوتن ميغلين، ١٩٧٣)، الصفحتان ٥٢ ـ ٥٣.

(*) كلاهما كان ينتمي الى «النادي الآخر» الذي أسسه ونستون تشرشل وف. سميث.

الوطنية المنطوي على نفسه. وقد قال سايكس في ما بعد: «كلما قلّت رؤيتي له سهل علي أن أفعل ما يطلبه مني...»[٢].

ومع ذلك فان بقية أعضاء لجنة دو بونسين اعتقدوا منذ البداية انه يتكلم بدعم كامل من اللورد كيتشنر. ان هذا العضو في البرلمان، قليل الخبرة نسبياً، قد سيطر على اللجنة الوزارية، فكان مسموع الكلمة والرأي، وكان هو العضو الوحيد في اللجنة الذي سبق له أن زار معظم أجزاء الامبراطورية العثمانية، وكان وحده القادر على الكلام عن معرفة مباشرة. ثم انه كان سياسياً أيضاً. وقد نجح في جعل العضو الرئيس الآخر في اللجنة، موريس هانكي يصادقه ويؤيده شخصياً. كان هانكي، وهو أيضاً في الثلاثينات من عمره، سكرتيراً للجنة دفاع الامبراطورية وسكرتيراً لمجلس الحرب المنبثق عن مجلس الوزراء وسيصبح من بعد أول من تولى منصب سكرتير مجلس الوزراء البريطاني. وباشرافه على جدول الأعمال وتدوينه محاضر الجلسات وما يقال فيها ويتخذ من قرارات، كان هانكي على الطريق ليصبح الرجل الأهم والأعلى قيمة في الجهاز البيروقراطي، وقد برهن أن تأييده لسايكس لا يقدر بثمن.

كان سايكس هو الذي يشرح البدائل المتوافرة لبريطانيا خلال اجتماعات لجنة دو بونسين. وهو الذي كان يتقصى المزايا النسبية لمختلف أنواع التسويات الاقليمية: أي ضم الأراضي العثمانية من قبل دول الحلفاء، أو تقسيم هذه الأراضي الى مناطق نفوذ بدلاً من ضمها ضماً صريحاً، أو ترك الامبراطورية العثمانية على حالها ولكن مع جعل حكومتها طيعة، أو تطبيق نظام اللامركزية في إدارة الامبراطورية وتقسيمها الى وحدات شبه متمتعة بالحكم الذاتي. (في نهاية الأمر أوصت اللجنة بالبدء في تجربة الخيار الأخير أولاً باعتباره الأسهل).

كان على اللجنة لكي تبحث هذه الأمور أن تقرر الأسماء التي ستطلقها على مختلف المناطق التي قد ترغب في تقسيم الامبراطورية العثمانية اليها. وكان مما يبين الروح التي قارن بها أعضاء اللجنة هذه المهمة انهم لم يروا حاجة للتقيد بخطوط التقسيمات السياسية التي كانت قائمة في الامبراطورية، أي الولايات، وشعر أعضاء اللجنة أن لهم الحرية في أن يعيدوا رسم خريطة الشرق الأوسط بالشكل الذي يرونه مناسباً. وفي أية حال فقد كان الاتجاه لدى أعضاء اللجنة، شأنهم شأن الطبقة البريطانية الحاكمة بشكل عام، أن يسترشدوا في مثل هذه الأمور بالمؤلفات الاغريقية واللاتينية التي كانوا قد درسوها في المدارس الثانوية: فقد استخدموا التعابير الاغريقية الغامضة التي استخدمت من قبل جغرافيي العصر الهيليني قبل نحو ألفي سنة. وهكذا فإن المناطق الآسيوية الناطقة بالعربية الواقعة شمال شبه الجزيرة العربية أطلقوا عليها بصورة جماعية اسم «بلاد الرافدين» في الشرق، واسم «سورية» في الغرب، مع أن المناطق التي ستشملها كل تسمية لم تكن واضحة. وقد أطلق على القسم الجنوبي من سورية اسم «فلسطين»، وهي تحريف لكلمة «فلستيا» أي الشريط الساحلي الذي كان يحتله الفلسطينيون

(٢) روجر ادلسون، **مارك سايكس**: **لوحة هاوٍ** (لندن: جوناثان كيب، ١٩٧٥)، ص ١٨٠.

قبل ظهور المسيح بأكثر من ألف عام. ومع أنه لم يكن هناك بلد على الاطلاق سمى نفسه فلسطين، فقد كان هذا الاسم تعبيراً جغرافياً دارجاً في العالم المسيحي الغربي عندما يصفون الأرض المقدسة.

وقد اقترحت اللجنة، بقيادة مارك سايكس، انشاء خمس ولايات متمتعة الى حد كبير بالحكم الذاتي داخل الامبراطورية العثمانية التي ارتأوا تفكيكها. وهذه الولايات هي سورية، وفلسطين، وأرمينيا، والأناضول، والجزيرة ـ العراق (أي الأجزاء الشمالية والجنوبية من بلاد الرافدين). ووفقاً لرؤية اللجنة. سيكون النفوذ أو الاشراف البريطاني مستحسناً وجوده في حزام واسع يمتد عبر الشرق الأوسط من البحر الأبيض المتوسط الى الخليج الفارسي. وكانت الفكرة تقضي بمد خط للسكة الحديدية من أحد موانىء البحر الأبيض المتوسط الى بلاد الرافدين، من أجل توفير طريق للنقل البري الى الشرق. وظل كيتشنر يصر على أن تكون اسكندرون هي الميناء، أما سايكس فقد طلب أن تكون حيفا، ثم ان فيتز جيرالد توسط بينهما فرجّح رأي سايكس.

كان سايكس من كل الوجوه يشق طريقه قريباً من خط كيتشنر، وان مع تعديلات طفيفة من عنده. فهو، مثل كيتشنر، كان يدعو الى نقل الخلافة جنوباً لتكون بعيدة عن متناول النفوذ الروسي، ولكنه أضاف الى ذلك أن الخلافة يجب أن تكون بعيدة عن متناول سيطرة فرنسا المالية، لأنه ادعى أن الشؤون المالية العثمانية ستخضع الى حد كبير للسيطرة الفرنسية نظراً للاستثمار الفرنسي الكبير في الدين العام العثماني[3].

بيد أن المقاربة بمعناها الكامل كانت تلك التي حددها كيتشنر. ان سايكس، الذي كان عضواً بارزاً في الكتلة المؤيدة لتركيا في البرلمان، وقد تخلى عن قناعته بوجوب الحفاظ على سلامة وحدة الامبراطورية العثمانية. وقد كتب بمناسبة الأول من نيسان (ابريل)، يوم كذبة نيسان (ابريل)، الى صديقه الحميم وزميله في تأييد تركيا عضو مجلس العموم أوبري هيربرت، قائلاً:

«استشف من رسالتك انك لا تزال على تأييدك لتركيا. لقد استدعاني الفيلد مارشال الى اجتماع تعقده الجمعية العثمانية التي لم أنتسب اليها قط... فأبرقت فوراً الى ماكينا (وزير الداخلية) ولدي كل الأمل بأن يكون الجمع كله قد احتجز ضمن أسلاك شائكة ـ ها! ها! لا بد أن ذلك سيغيظك كثيراً. مرة أخرى ها! ها! سياستك سياسة خاطئة. يجب أن تزول تركيا من الوجود. أزمير ستكون يونانية، وأضاليا ايطالية، وجنوب طوروس وشمال سورية فرنسية، وفلسطين بريطانية، وبلاد الرافدين بريطانية وكل ما عدا ذلك روسي ـ ومن ضمنه القسطنطينية، وسوف أنشد «لنسبحك يا الله» في كنيسة القديسة صوفيا، وسأرنم في مسجد عمر «الآن أيها السيد تطلق سبيل عبدك فيذهب بسلام». سننشدها بلغة أهل ويلز، وباللغة البولونية، وباللغة الكلتية، وباللغة الأرمنية، تكريماً للأمم الصغيرة ذات الشهامة».

وبعد أن قال مزيداً من مثل هذا الكلام ختم رسالته بملحوظة:

(٣) المرجع نفسه، ص ١٨٢.

«الى الرقيب،
هذه رسالة من نابغة لامع الى نابغة لامع. الناس الدون لا يمكننا أن نتوقع منهم فهمها. أتوسل أن تسمح بمرور الرسالة دون خوف.
مارك سايكس (مع الألقاب)»[٤].

(٤) مارغريت فيتزهيربرت، **الرجل الذي كان العباءة الخضراء: سيرة حياة اوبري هيربرت** (لندن: جون مري، ١٩٨٣)، الصفحات ١٤٧ ـ ١٤٩.

الفصل السادس

عند مضائق الحظ

كانت لندن تتعامل بسرعة مع العواقب السياسية للنصر المرتقب في الدردنيل، أما في ساحة المعركة فقد كان الأسطول بطيء الحركة. لقد حال سوء الجو دون أن تستخدم السفن الحربية قوتها النارية الكاملة على نحو مؤثر. ومع مرور الأيام بدأ الجنود الأتراك على امتداد الشاطىء يستعيدون ثقتهم بأنفسهم، وتعلموا كيف يضايقون كاسحات الألغام البريطانية باطلاق النار عليها من مدافع الهاوتزر والمدافع الصغيرة المتنقلة. وفي ١٣ آذار (مارس) تلقى تشرشل برقية من كاردن قال فيها ان كنس الألغام لم يكن يجري بصورة مرضية، وان ذلك عائد الى ما ادعاه كاردن من كثافة النيران التركية، مع أنه لم تقع اصابات بين البريطانيين. وقد عقبّ تشرشل على البرقية بقوله: «ان هذا يجعلني أتلوى من الألم. فلست أفهم ما الذي يجعل اطلاق النار يقف في طريق كنس الألغام ما دامت النيران لا تسبب وقوع اصابات. ان مئتي أو ثلاثمئة إصابة هي ثمن قليل ندفعه لمتابعة كنس الألغام حتى الوصول الى المضائق»[(١)].

إن جزءاً من المشكلة ـ وكان هذا الجزء هو أحد مثالب الخطة الأصلية التي وضعها الأميرال كاردن ـ كان يتمثل في أن بحارة كاسحات الألغام مستخدمون مدنيون، ولم يكونوا مستعدين للعمل بينما هم يتعرضون لاطلاق النار عليهم. ولكن المشكلة الرئيسة كانت أن الأميرال كاردن بدأ يفقد رباطة جأشه. فقد أبرق اليه تشرشل بتاريخ ١٣ آذار (مارس) ليبلغه: «ان لدينا معلومات أن القلاع التركية قد نفدت ذخيرتها وأن الضباط الألمان يرسلون تقارير تدل على القنوط»[(٢)]، فرد كاردن على هذه البرقية بأنه سيشن الهجوم الرئيس على المضائق. وسيخوض

---

(١) مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل**، المجلد ٣، ١٩١٤ ـ ١٩١٦، **تحدي الحرب**، (بوسطن: هوتن ميغلين، ١٩٧١)، ص ٣٤٣.

(٢) المرجع نفسه.

المعركة من أجل هذه المضائق الهامة يوم ١٧ آذار (مارس) أو نحو ذلك التاريخ، تبعاً لحالة الجو. ولكن الأميرال كان قلقاً، فلم يعد يأكل أو ينام. لم يكن قد فقد أية سفينة من سفنه، وكان قد أبلغ لندن أنه لم تقع اصابات في صفوف رجاله، غير أن حالة التوتر والقلق اشتدت عليه وصارت فوق طاقته للاحتمال، وفجأة أصيب بانهيار الأعصاب.

عشية المعركة الرئيسة لاحتلال المضائق، أبلغ الأميرال كاردن الضابط الذي يليه في القيادة انه لم يعد قادراً على مواصلة القيادة. وقد استدعى طبيب الأسطول الذي فحصه وأعطى تقريراً بأن الأميرال مصاب بسوء الهضم ويجب أن يوضع على قائمة المرضى مدة ثلاثة أو أربعة أسابيع. وبتاريخ ١٦ آذار (مارس) أبرق كاردن الى تشرشل قائلاً: «شديد الأسف لوضعي على قائمة المرضى. التقرير الطبي يتبع»[٣].

بادر تشرشل فوراً الى تعيين جون دو روبيك، الضابط الذي يلي كاردن في القيادة، ليأخذ مكانه. بعد ذلك بدأ دو روبيك، حسب تقريره البرقي الى الأميرالية، الهجوم الرئيس عند الساعة ١٠,٤٥ من صباح ١٨ آذار (مارس).

أخذت الأمور في ذلك اليوم تسير سيراً سيئاً عندما انفجرت بارجة فرنسية بطريقة غامضة واختفت عند الساعة الثانية بعد الظهر. بعد مرور ساعتين على انفجارها اصطدمت بارجتان بريطانيتان بألغام. والسفينة التي أرسلت لانقاذ احداهما، وهي السفينة «أريزيز ستبل» اصطدمت هي الأخرى بلغم، فغرقت البارجة والسفينة «اريزيز ستبل» كلتاهما. ثم جنحت سفينة حربية فرنسية بعد أن لحقت بها أضرار من جراء اصابتها بنيران المدفعية. بيد أن دو روبيك أبلغ الأميرالية أن بقية سفنه ستكون مستعدة لمعاودة الهجوم في غضون ثلاثة أو أربعة أيام. كانت هناك حالة حبور في الأميرالية في لندن، ذلك أن المخابرات البحرية اكتشفت أن العدو سينهار عند معاودة الهجوم. فقد حدث بعد ظهر ١٩ آذار (مارس) أن جاء الكابتن وليم ريجينالد هول، مدير المخابرات البحرية، الى تشرشل وفيشر حاملاً اليهما برقية تم اعتراضها وفك رموزها. كانت البرقية من قيصر ألمانيا. وقد استوعبا مغزاها فوراً، فهتف تشرشل مبتهجاً: «لقد استهلكوا كل ذخيرتهم»، وهذا ما كان قد حدث فعلاً. وأخذ فيشر يلوّح بالبرقية فوق رأسه ويصرخ: «قسماً بالله، سأعبر المضائق غداً» ثم عاد يقول: «غداً! قد نفقد ست سفن، ولكني سأجتازها»[٤]. ولم يطلع تشرشل وفيشر مجلس الوزراء على الأمر خشية فضح مصدر المخابرات، ولم يطلعا دو روبيك أيضاً، بل اكتفيا بابلاغه برقياً أن من المهم ألا يعطي انطباعاً بأن العمليات متوقفة.

الأمر الذي كان تشرشل وفيشر يجهلانه هو أن الكابتن هول، مدير المخابرات البحرية كان قد

(٣) مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق**، المجلد ٣ الجزء ١: تموز ١٩١٤ ـ نيسان ١٩١٥ (بوسطن: هوتن ميفلين، ١٩٧٣)، ص ٧٠٣.

(٤) جيلبرت، **تشرشل: تحدي الحرب**، ص ٣٥٨.

شرع، بإيحاء من موريس هانكي، في مفاوضات مع طلعت بك، من قادة تركيا الفتاة، بهدف اقناع الامبراطورية العثمانية بالانسحاب من الحرب لقاء مبلغ كبير من المال. وقد اجتمع المفاوضون البريطانيون والأتراك في أحد الموانىء البحرية في الجزء الأوروبي من تركيا بتاريخ ١٥ آذار (مارس)(٥). وأخفقت المفاوضات لأن الحكومة البريطانية شعرت انها لا تستطيع تقديم تأكيدات بأن الامبراطورية العثمانية يمكنها الاحتفاظ بالقسطنطينية ـ كان التزام بريطانيا بارضاء طموحات روسيا التزاماً شديداً. ولكن الكابتن هول لم يكن قد علم بعد بانهيار المفاوضات عندما أطلع تشرشل ليلة ١٩ آذار (مارس) على خطة لعرض أربعة ملايين جنيه على تركيا لقاء انسحابها من الحرب. ارتعد تشرشل رعباً واحتد فيشر غضباً. وتحت الحاحهما أبرق هول الى مبعوثيه يأمرهم بسحب العرض. وقد استذكر هول هذه الواقعة في ما بعد قائلاً ان فيشر وثب من كرسيه وهو يصرخ: «أربعة ملايين؟ لا، لا. أقول لك انني سأعبرها غداً»(٦).

(٢)

كل ما كان يعترض طريق أسطول الحلفاء بقيادته البريطانية للوصول الى القسطنطينية، بضعة ألغام تحت سطح الماء، وكان مخزون العثمانيين من هذه الألغام قد تناقص الى حد أن الأتراك اضطروا لاصطياد وإعادة استخدام الألغام التي كان الروس يستخدمونها ضدهم.

انهارت المعنويات في القسطنطينية. وسط الشائعات وحالة الذعر بدأ إخلاء المدينة، وأرسلت وثائق الدولة واحتياطي المصارف من الذهب الى أمكنة آمنة. وأُعدت قطارات خاصة للسلطان وللجاليات الدبلوماسية الأجنبية. أما الموسرون فقد أرسلوا زوجاتهم وعائلاتهم مسبقاً الى داخل البلاد. وأما طلعت، وزير الداخلية، فقد أرسل في طلب سيارة مرسيدس ذات قدرة عالية لاستعماله الشخصي وزودها بصفائح وقود إضافية استعداداً لسفر طويل الى مكان ناءٍ يلجأ اليه. وبدأت تظهر في شوارع المدينة لوحات تندّد بالحكومة. وتوقعت السلطات أن ترحب الجاليات الأرمنية واليونانية بالحلفاء، ولكن الشرطة بدأت باعتقال المشتبه بهم من السكان الناطقين بالتركية أيضاً.

في هذه الأثناء قام أعضاء جماعة أنور ـ طلعت الذين أيدوا هذه الجماعة حتى النهاية المريرة، بجمع كميات من البنزين استعداداً لحرق المدينة عند وصول الحلفاء، ولغموا كنيسة القديسة صوفيا وغيرها من النصب الكبرى بالديناميت. وبدأت البارجة غوبين تستعد للهرب الى البحر الأسود.

عزم أنور بشجاعة على البقاء للدفاع عن المدينة، ولكن تدابيره العسكرية كانت تفتقر الى الكفاءة

---

(٥) ستيفن روسكيل، **هانكي: رجل الأسرار**، المجلد ١: ١٨٧٧ ـ ١٩١٨ (لندن: كولنز، ١٩٧٠)، ص ١٥٩.

(٦) جيلبرت، **تشرشل: تحدي الحرب**، ص ٣٥٩.

الى حد أن أية محاولة تركية ـ حسب قول ليمان فون ساندرز ـ لمقاومة انزال قوات الحلفاء على بر المدينة صارت مستحيلة.

(٣)

اغتبطت لندن وقنطت القسطنطينية. ولكن مزاج القيادة البريطانية عند مضائق الدردنيل كان معكراً. فالاصابات والخسائر الناجمة عن الاصطدام بالألغام في ١٨ آذار (مارس) أصابت الأميرال دو روبيك باليأس. كان خائفاً على مستقبله الوظيفي. ويقول أحد التقارير انه عند حلول مساء ١٨ آذار (مارس)، ولدى استعراض دو روبيك نتائج معركة ذلك اليوم قال: «أظن اني انتهيت»[٧].

لقد توترت أعصاب دو روبيك لأنه لم يعرف سبب خسائره. وواقع الأمر أن سفنه اصطدمت بخط واحد من الألغام كان يمتد بموازاة الشاطىء وليس عبر المضائق. وكانت هذه الألغام قد وضعت في الليلة السابقة ولم يلحظها الاستطلاع الجوي البريطاني. كانت ضربة حظ لا تتكرر.

ظهر القدر الآن في شخص انسان ساحر هو الجنرال سير أيان هاملتون، الذي كان كيتشنر قد أرسله ليسبق وصول القوات البرية المزمع ارسالها. وكان هاملتون سيتولى قيادة هذه القوات، أما الأوامر الصادرة اليه فكانت تقضي بأن يترك للأسطول كسب الحملة ومن ثم يقوم بانزال قواته الى البر ويستولي على الشاطىء. أما إذا فشل الأسطول في كسب الحملة وحده، فالأوامر البديلة لدى هاملتون تقضي بأن يغزو الشاطىء الأوروبي للمضائق، ويستولي على المضائق ليتمكن الأسطول من عبورها.

وما ان أدرك الأميرال دو روبيك أن أمامه بديلاً لاستئناف المعركة ـ وانهم في لندن رأوا أنه أمر مقبول أن يسلم المسؤولية الى هاملتون والى الجيش إذا اختار أن يفعل ذلك ـ حتى رأى أن لا سبب يدفعه الى مواجهة مزيد من الأخطار. وبغض النظر عمن كان الأول في الاختيار، فقد اتفق دو روبيك وهاملتون على أن ينتظر الأسطول حتى يصل الجيش ويبدأ القتال. وكان هاملتون قد أبرق بوجهات نظره الى كيتشنر، الذي أطلع رئيس الوزراء على البرقية يوم ١٨ آذار (مارس). ان هذه البرقية أقنعت اسكويث بأن «الأميرالية كانت مسرفةً في تفاؤلها بما تستطيع السفن وحدها أن تفعله»[٨]. وأبرق دو روبيك الى تشرشل بعد اجتماعه مع أيان هاملتون يوم ٢٢ آذار (مارس) قائلاً: «بعد اجتماعي مع الجنرال هاملتون واستماعي الى مقترحاته أرى الآن» ان الجيش يجب أن يشترك في الحملة[٩].

(٧) المرجع نفسه، ص ٣٧١.

(٨) هـ.هـ. اسكويث، **رسائل إلى فنيشيا ستانلي**، أعدها للطباعة مايكل واليانور بروك (اوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة اوكسفورد، ١٩٨٢)، ص ٤٨٨.

(٩) جيلبرت، **تشرشل: تحدي الحرب**، ص ٣٧٥.

صباح ٢٣ آذار (مارس) اجتمعت مجموعة الحرب في مقر الأميرالية لتبحث قرار دو روبيك. وقد شعر ونستون تشرشل بالفزع والصدمة، ولكن لورد البحرية الأول، الأميرال فيشر، رأى أنه يجب قبول قرار الرجل الذي في الموقع، شئنا أم أبينا، وقد أيده في ذلك أميرال الأسطول سير آرثر ويلسون، والأميرال سير هنري جاكسون. أما تشرشل فقد خالفهم الرأي محتداً ورفع الأمر الى مجلس الوزراء بعد انتهاء اجتماع مجموعة الحرب. ثم ان تشرشل سطّر نص برقية شديدة اللهجة الى دو روبيك وأخذ النص الى مجلس الوزراء للحصول على الموافقة، وكان نص البرقية يأمر بلهجة حازمة الأميرال بتجديد الهجوم. وعندما اجتمع مجلس الوزراء نال تشرشل تأييد رئيس الوزراء وكيتشنر اللذين أعدا برقيتين شديدتي اللهجة الى سير أيان هاملتون.

ولدى عودة تشرشل الى الأميرالية بعد ظهر اليوم نفسه وجد أن فيشر وويلسون وجاكسون ظلوا متشبثين بمعارضتهم لإرسال الأمر البرقي الى الأميرال دو روبيك. وبما أن تشرشل كان وزيراً مدنياً يحاول أن ينقض رأي لورد البحرية الأول وزملائه أمراء البحر في مسألة بحرية، فقد شعر أنــه مضــطرٌ للعودة الى اسكويث طالباً موافقة رئيس الوزراء. بيد أن اسكويث رفض إعطاء موافقته. وكانت وجهة نظره الشخصية أن الهجوم يجب أن يستأنف ولكنه لن يأمر باستئنافه متخطياً معارضة أمراء البحر في الأميرالية.

ولما كان تشرشل يعلم أن أزمة الذخيرة في تركيا تعني أن الطريق الى القسطنطينية مفتوح، فقد عاد يناضل ضدّ قرار السماح للأسطول بالتخلي عن الحملة. وبما أنه لم يكن قادراً على إصدار الأوامــر الى دو روبيــك باستئناف الهجوم، فقد حاول أن يجعله يستأنف الهجوم عن طريق الاقناع، فأرسل اليه برقيات حاول فيها اللجوء الى المنطق ليبين للأميرال سبب أهمية استئناف الهجوم البحري. وقد تحدث مرة أخرى مع رئيس الوزراء الذي أعرب عن «أمله» في أن يستأنف الهجوم قريباً[١٠]. ولكن كان ذلك دون جدوى. ومع أن عدد الاصابات لم يتجاوز بضع مئات، فان حملة الدردنيل البحرية قد انتهت.

(٤)

بعد معركة ١٨ آذار (مارس) ـ المعركة التي أفزعت دو روبيك الى حد أنه قرر أن يستدير بسفنه ويبتعـد ـ استنتــج القادة العسكريون العثمانيون أن قضيتهم خاسرة. وبينما كان الأميرال دو روبيك، على متن سفينته، يصدر الأوامر بالكف عن القتال، كانت القوات التركية المدافعة عن الشاطىء، دون علم منها بقرار دو روبيك، تتلقى الأوامر بإطلاق آخر ما تبقى لديها من القذائف وأن تتخلى بعد ذلك عن مواقعها الساحلية. لو أن الأميرال دو روبيك، الذي قاد في المعركة يوماً واحــداً فقط، قد انخرط في المعركة يوماً ثانياً، لكان رأى قوات العدو تنسحب وتتلاشى، ولكان

(١٠) جيلبرت، **تشرشل: المجلد المرافق**، ص ٧٣١.

باستطاعة سفنه كاسحة الألغام، لو عملت بضع ساعات دون توقف ودون أن تواجه مقاومة، أن تطهر الطريق البحرية عبر المضائق، إذ انها لو تخلصت من صف الألغام المحيط بالمضائق لما كان لدى الأتراك ألغام أخرى لوضعها في المياه، ولكان باستطاعة الأسطول أن يشق طريقه الى القسطنطينية دون أن يعترضه شيء.

بالنسبة لونستون تشرشل، الذي كان على بعد ساعات فقط من النصر، صار دنو النصر منه ـ ومعرفته أن الأمر كاد يتحقق وأنه كاد يصبح في قبضة يده ـ سبباً لعذابه طوال حياته. ان ما انزلق من راحة يده كان أكثر من مجرد نصر شخصي. كان في نظره آخر فرصة أمامه لإنقاذ العالم الذي نشأ فيه: أي كسب الحرب بينما أوروبا التقليدية التي ألفها، أوروبا ذات الممالك والامبراطوريات الراسخة، لا تزال قائمة على قيد الحياة(*).

(*) لا يزال المؤرخون يناقشون مسألة هل كان النصر في الحرب على العثمانيين في عام ١٩١٥ سيؤدي الى انتصار سريع للحلفاء في الحرب ضد المانيا. «انصار الاستيلاء على الشرق» وفي طليعتهم لويد جورج، لم يشكوا قط في أنه كان سيؤدي الى ذلك.

الفصل السابع

المحاربون

(١)

إن أنور باشا الذي صدمه قصف القوات الحليفة يوم ١٨ آذار (مارس) أعلن قراراً هامــاً لا يتفق مع طبيعــة هذا الرجل: فقد تخلى عن قيادة القوات العثمانية في الدردنيل للجنرال الالماني ليمان فون ساندرن. كان تسليم محاربيه المسلمين إلى قائد أجنبي ـ ومسيحي ـ أمراً مخالفاً لكل نزعات أنور. فقد كان حتى تلك اللحظة يقاوم الضغـوط التي تمارس عليه لتسليم السلطة حتى للخبراء الألمان الذين كانوا يعملون بصفة مستشارين في وزارته وفي رئاسة الأركان. ومع انه كان قد سمح للضباط الألمان في وزارة الحربية التي يرأسهـا أن يشغلوا مراكـز رئيسة في فروع العمليات، والمخابرات، والسكك الحديدية، والتموين، والذخائر، والفحم الحجري، والقلاع، فقد كان بدافع الحسد، يشكك في آراء زملائه الألمان ويخفض من سلطتهم، وظل يفعل ذلك في مجالات كثيرة. ولكنه في مواجهة مدافع أسطول الحلفاء تخلى في نهاية الأمر عن سلطته في ساحة المعركة الأهم.

لم يكن أمام الجنرال ليمان سوى القليل من الوقت، فلم يهدر أية لحظة، بل قام بتجميع ما وجده من قوات ومؤن وسط ركام موارد الامبراطورية. وقد أصدر أوامره الخاصة بالتعيينات للمناصب القيـاديـة، ولا سيمـا إعـطاء منصب مسـؤول إلى مصطفى كمال، الضابط التركي المعجب بالأساليب الأوروبية والمزدري للتخلف العثماني، والذي كان يشعر بالمرارة لأنه كان متفوقاً على أولئك الذين تقدموا عليه بغير حق ـ هذه الأمور كلها أبقته حتى ذلك الحين في مناصب مغمورة وغير مجزية. كان مصطفى كمال مقبلاً على اثبات عبقريته في ميدان المعركة خلال القتال المقبل: كان عليه ان يثبت انه القائد الذي يضع نصب عينيه الموقع التكتيكي الرئيس والذي يستولي على المرتفعات ويسيطر على ميدان المعركة.

كان الجنرال ليمان على اطلاع مستمر بالتقدم الذي يحققه البريطانيون في تنظيم قوة للغزو. فقد كانت أخبار تجميع قوات الحملة البريطانية على السفن في مصر تنشر في صحف القاهرة، وكان

ينقلها إلى الأتراك تجار الاسكندرية. ثم ان عملاء العثمانيين في اليونان المحايدة لا بد انهم لاحظوا في وقت لاحق الاسطول الكبير وهو يمخر عباب الماء عبر جزر إيجه، إذ كانت أضواء ومصابيح الإشارة على سفنه تسطع في أثناء الليل، كما كان عزف فرقه العسكرية يعلو على صفير الرياح وهدير الأمواج في أثناء النهار.

وهكذا فإن قوات الدفاع العثمانية بقيادة الجنرال ليمان الرجل العملي، وبعد ان توفر لها ضباط أكفّاء، كانت تترقب الغزو البريطاني عند وقوعه. لقد كان اشتباكاً من النوع الذي يستخدم فيه صمود الجندي العثماني ليحقق أفضل ميزة. وقد نوّه سير مارك سايكس بذلك في رسالة وجهها إلى تشرشل في أواخر شهر شباط (فبراير) إذ كتب فيها يقول إنه مع امكانية إبادة الأتراك في هجوم صاعق «فإنهم يصبحون رهيبين إذا أتيح لهم الوقت للتفكير»[1].

(٢)

كان بدء الحملة بالنسبة للقائد البريطاني سير أيان هاملتون صباح ١٢ آذار (مارس)، عندما استدعاه اللورد كيتشنر على غير انتظار ـ ودون تفسير ـ إلى وزارة الحربية ليعرض عليه قيادة الحملة. وقد قال آنذاك لوزير الحربية انه لا يعرف شيئاً عن تركيا وانه بالتالي يحتاج على أقل تقدير إلى بعض الشرح والتوجيه.

ويستذكر هاملتون في ما بعد ما دار في ذلك الاجتماع فيقول إن وزير الحربية أنذره وهو يسلمه قيادة الفرقة التي هيئت في أول الأمر لإرسالها إلى الدردنيل لدعم الاسطول، بأن الجنود «هم مجرد قرض يجب إعادته في اللحظة التي يمكن الاستغناء عنه فيها» وقال له أيضاً إن كل ما يهيأ للإرسال إلى الشرق إنما تعتبره مصالح قوية في بريطانيا وفرنسا وكأنه قد سرق من الغرب»[2].

عندئذٍ قدم مدير العمليات العسكرية في وزارة الحربية إيجازاً إلى هاملتون وأطلعه على خريطة وخطة هجوم مستعارتين من الأركان العامة اليونانية، إذ ان وزارة الحربية البريطانية لم تكن قد كلفت نفسها عناء إعداد خريطة وخطة خاصتين بها.

مضى الجنرال هاملتون ومعه خريطة غير دقيقة عفا عليها الزمن ولا شيء آخر يسترشد به. ولدى رؤيته شبه جزيرة غاليبولي للمرة الأولى قال على الفور «تبدو شبه الجزيرة هذه أعتى مما بدت على خريطة اللورد كيتشنر الصغيرة غير المجسمة»[3]. لقد كانت شبه جزيرة غاليبولي مساحة من الشعاب والوديان التي كانت تقسم شاطئها إلى شواطىء صغيرة مفصولة عن بعضها بعضاً.

---

(١) مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل: **المجلد المرافق**، المجلد ٣، الجزء ١، تموز ١٩١٤ ـ نيسان ١٩١٥ (بوسطن: هوتن ميغلين، ١٩٧٣)، ص ٥٨٢.

(٢) سير ايان هاملتون، **مفكرة غاليبولي**، المجلد ١ (لندن: ادوارد ارنولد، ١٩٢٠)، ص ٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥.

أبحر هاملتون من مرسيليا على طرّاد سريع فوصل إلى ساحل غاليبولي بتاريخ ١٨ آذار (مارس)، أي في الوقت المناسب لاقناع دوروبيك بوقف الحملة البحرية. وفي أواخر نيسان (ابريل) أبحر عائداً إلى المضائق ليتولى قيادة هجوم الجيش. وقد كان حريصاً على اتباع التعليمات التي زوّده بها وزير الحربية بشأن الحملة. كانت هذه التعليمات تقضي بأن يهاجم الجانب الأوروبي فقط من المضائق، أي شبه جزيرة غاليبولي، وألّا يبدأ الهجوم إلّا بعد وصول قواته كلها، وهذا ما جعله يأمر الأسطول ان يعيده من تركيا إلى مصر لتجميع قواته فيها (بالرغم من مآخذه على ذلك). وقد تطلب الأمر منه ثلاثة أسابيع لتنظيم القوة التي ستشترك في الحملة، ثم أعاد الاسطول إلى تركيا لكي يبدأ غزوه لشبه جزيرة غاليبولي، أي الشاطىء الغربي (الأوروبي) للدردنيل.

كانت مجازفة مليئة بالمخاطر: وحقيقة الأمر ان الدراسات العسكرية البريطانية التي أجريت قبل الحرب وكشف اسكويت النقاب عنها في نهاية شباط (فبراير)، قد بيّنت ان قيام الجيش البريطاني بهجوم على غاليبولي عمل ينطوي على مجازفة بالغة[٤]. مع ذلك أمر كيتشنر بشن هذا الهجوم قائلاً انه يعتقد ان القادة العسكريين العثمانيين تركوا الجانب الأوروبي من المضائق بشكل أو بآخر خالياً من وسائل الدفاع.

عندما انعقد مجلس الحرب سأل العضو الوحيد في هذا المجلس من حزب المحافظين ـ رئيس الوزراء السابق آرثر بلفور ـ «هل من المحتمل إذا قطعت الامدادات عن الأتراك ان يستسلموا أم انهم سيحاربون وظهورهم إلى الحائط؟» فقال لويد جورج «انه يرجح ان يصمدوا» ولكن كيتشنر أجاب قائلاً انهم قد يستسلمون[٥].

بعد ذلك بعام أصدرت جيوش الحلفاء المقاتلة في الميدان حكمها في هذا الموضوع. إن كومبتون ماكنزي، الروائي الشاب الذي تحول مراسلاً حربياً، بعث برسالة من الدردنيل قال فيها: «إن الضباط الفرنسيين الذين قاتلوا في الغرب يقولون إن تركياً واحداً يساوي اثنين من الالمان كإنسان مقاتل. فهو في الواقع يكون رائعاً عندما يحارب وظهره إلى الحائط»[٦].

(٣)

فجر ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩١٥ أُنزلت جيوش بريطانيا وبلاد الدمينون والجيوش الحليفة على ستة شواطىء ضيقة متصلة في شبه جزيرة غاليبولي، وقد أُخذ الأتراك على حين غرة إذ انهم كانوا يعرفون موعد الهجوم ولا يعرفون مكانه، وربما كان بالامكان التغلب عليهم في ذلك اليوم.

---

(٤) مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل**، المجلد ٣: ١٩١٤ ـ ١٩١٦ **تحدي الحرب** (بوسطن: هوتن ميفلين، ١٩٧١)، ص ٢٩٤.

(٥) جون غريغ، **لويد جورج: من السلم إلى الحرب ١٩١٢ ـ ١٩١٦** (لندن: ميتوين، ١٩٨٥)، ص ٢١١.

(٦) كومبتون ماكنزي، **حياتي والتايمز الثمانية الخامسة ١٩١٥ ـ ١٩٢٣** (لندن: شاتو دوندوس، ١٩٦٦)، ص ٢٦٩.

غير ان موقع الغزو الأقصى شمالاً، وهو موقع أري بورنو، قد شكل مفاجأة للجنود الاستراليين والنيوزيلانديين الذين أنزلوا هناك ـ فقد أخذهم الاسطول خطأ إلى شاطىء غير الشاطىء المقرر لنزولهم. وبينما كانوا يتسلقون سفوح التلال السحيقة الإنحدار التي كانت أمامهم جابهوا جنوداً أتراكاً كانوا قد فروا فأعاد تجميعهم قائدهم مصطفى كمال. وقد احتدمت المعركة طوال اليوم. ومرت لحظات كان يمكن ان ترجح فيها كفة أي من الجانبين، ولكن الأتراك في نهاية الأمر دحروا الغزاة وردوهم عن السفوح.

عند طرف شبه جزيرة غاليبولي كانت هنالك خمسة رؤوس جسور أخرى محددة لنزول قوات الحلفاء وقد أعطيت أسماء رمزية فسمي كل واحد منها بحرف من حروف الهجاء الإنكليزية. وفي أحدها لم يكن هناك جنود أتراك فتسلق الغزاة التل إلى قمته المشرفة على الشاطىء دون ان يواجهوا مقاومة. ولكنهم بدل ان يواصلوا الزحف توقفوا بسبب اشكال يتعلق بمن يتولى القيادة. وفي رأس جسر آخر واجه المهاجمون مقاومة ضئيلة فتسلقوا المرتفع الصخري ـ ولكنهم توقفوا ايضاً. وفي موقع ثالث واجه الفريق المهاجم مقاومة ضئيلة ولكنه رابط على الشاطىء ولم يحاول الصعود إلى قمة المرتفع المطل على الشاطىء.

كان الحلفاء في ذلك اليوم يتمتعون بتفوق ساحق في عدد الجنود ـ فقد كان معظم قوات الجنرال ليمان قد تجمع كاحتياطي في مكان يبعد مسافة عن ساحة المعركة ـ وكان باستطاعة قوات الغزو في ثلاثة من رؤوس الجسور ان تستثمر الهجوم المفاجىء فتتقدم وتدمر الحامية التركية الصغيرة في جوارها.

مع حلول ٢٦ أيلول (سبتمبر) تبدل الموقف. فقد بدأت تتدفق التعزيزات التركية، وبمعنى ما انتهى كل شيء: لم يعد احراز نصر رخيص الثمن في شبه جزيرة غاليبولي في متناول يد الحلفاء. وقد نصح الجنرال بيردوود، قائد القوات الاسترالية والنيوزيلندية، بناء على مشورة ضباطه، بالعودة إلى السفن والتخلي عن المواقع التي احتلتها قواته. ولكن سير إيان هاملتون، باعتباره القائد الذي يتبعه بيردوود، قرر بدلاً من ذلك الثبات في المواقع.

إن هاملتون أقرّ دون ان يدري، بأن الحملة التي يقودها ـ والتي كانت الغاية منها كسر الجمود العسكري في الحرب ـ قد كتب لها الفشل. فحفر الخنادق، كما تبين في فرنسا والفلاندرز، يؤدي على الأرجح إلى جمود بدلاً من ان يكسر الجمود. والحقيقة ان غاليبولي، بما شهدته من هجمات دموية عقيمة على مواقع ثابتة، كانت ستتحول إلى ساحة لإعادة عرض رواية حرب الخنادق في الجبهة الغربية.

كان هاملتون قد وضع قواته في مواقع تستطيع منها في أحسن الحالات ان تقاتل الأتراك حتى التعادل، وفي أسوأ الحالات ان تمنى بكارثة. فالأتراك حفروا خنادقهم على المرتفعات المسيطرة على المنطقة، أما قادة القوات البريطانية فقد أمروا جنودهم بحفر خنادقهم على الشواطىء. وهناك على حافة الماء صار قتال الحلفاء في نهاية الأمر قتالاً من أجل البقاء. وما لبث معظم

أعضاء الحكومة البريطانية في لندن ان رأوا في الجلاء الحل الوحيد، ولكن تشرشل وكيتشنر ناضلا ضد الجلاء: اتخذ تشرشل هذا الموقف لأنه لم يكن مستعداً لقبول الهزيمة، أما كيتشنر فلأنه اعتقد ان رؤية جيش بريطاني مهزوم من قبل جيش شرق أوسطي ستكون كارثة بالنسبة لبريطانيا.

الفصل الثامن

السياسيون

(١)

تصميم تشرشل العنيد على مواصلة القتال في غاليبولي حتى النصر أبقاه في بقعة الضوء حتى بعد ان تسلم الجيش من البحرية مهمة حملة الدردنيل. وقد بدا انه الرجل الذي تسبب في الحرب مع الامبراطورية العثمانية وانه كذلك الرجل الذي تسبب في ان تُمنى بريطانية بهزيمة بعد أخرى في تلك الحرب.

ومع ان معركة المضائق لم تعد منذ شهر نيسان (ابريل) عملية تقوم بها الاميرالية، فقد جعلوا من تشرشل كبش الفداء المسؤول عن استمرار الاصابات بين الجنود والنكسات التي أصابت جيوش الحلفاء وهي تقاتل بلا أمل في غاليبولي. ولأن مهابة كيتشنر كانت عظيمة فإن الصحافة، والرأي العام، والبرلمان رأوا انه مما لا يخطر في البال ان يكون مسؤولاً عن الأخطاء التي ارتكبت. أما تشرشل فكانوا ينظرون إليه على انه مدني يتدخل في شؤون غيره، ولذلك كان من السهل ان تصدق هذه الجهات أمراء البحر في ادعائهم ان تدخله بأسلوب الهواة في المسائل البحرية كان سبب النكسات البريطانية. وقد عبرت جريدة «التايمز» عن اجماع في الرأي كان يتبدى في عام ١٩١٥ عندما أعلنت في مقالها الرئيس يوم ١٨ أيار (مايو):

«ان ما كان يتردد منذ مدة طويلة وراء الكواليس باعتباره مجرد شائعة، هو الاتهام الذي تردد تكراراً وبصورة مطلقة في أوساط الرأي العام، ان لورد الاميرالية الأول يتولى مسؤوليات ويخالف مستشاريه الخبراء إلى حد قد يعرض السلامة الوطنية للخطر في أي وقت... وعندما يسعى وزير مدني مسؤول عن سلاح مقاتل سعياً متمادياً للقبض على سلطة ما كان ينبغي ان تنتقل إلى يديه غير الخبيرتين، ويحاول استخدام هذه السلطة بطرق تقود إلى الهلاك، يكون الوقت قد حان كي يتخذ زملاؤه في مجلس الوزراء اجراء محددا»[1].

(١) مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل**، المجلد ٣: ١٩١٤ ـ ١٩١٦، **تحدي الحرب**، (بوسطن: هوتن ميفلين، ١٩٧١)، ص ٤٥٠.

لم يكن معروفاً بصورة عامة خارج المجلس الوزاري الحربي ان اللورد كيتشنر هو واضع خطة ارسال الأسطول ليهاجم الدردنيل بجهده الخاص. وقد وجه الجميع اللوم إلى تشرشل في اتخاذ هذا القرار، ولذلك صار ملوماً أيضاً عن مهلة الانذار المسبق التي استمرت أسابيع عدة والتي أعطيت إلى أنور باشا وليمان فون ساندرز، الأمر الذي مكّنهما من تحصين جيوشهما في الخنادق لصد هجوم الحلفاء على غاليبولي. وقد رأى الضباط الذين كانوا على شواطىء غاليبولي ان الهجوم البحري السابق كان عملاً استعراضياً ناقصاً قام به اللورد الأول للأميرالية بدافع حب التظاهر، عملاً فاشلاً هددهم بخطر الموت. إن اوبري هيربرت، الذي كان يؤدي الخدمة هناك في القوات المسلحة، كتب في مفكرته اليومية «ان اسم ونستون يملأ نفس كل انسان بالغضب. كان الأباطرة الرومان يقتلون العبيد من أجل اكتساب الشعبية، وهو يقتل رجالاً أحراراً من أجل اكتساب الشهرة. ولو كان قد ارتدع عن تجربة تلك الضربة وتعاون مع الجيش، لكان ممكناً ان نصل إلى القسطنطينية بخسارة ضئيلة جداً»[٢]. وفي وقت لاحق كتب يقول «بالنسبة لونستون، أود لو انه يموت من جراء بعض الآلام الممضة التي رأيت كثيرين هنا يموتون من جرائها»[٣].

وانهالت عبارات التقريع والشتائم على تشرشل من كل الأوساط، وتدهور وضعه السياسي تدهوراً سريعاً. ووصلت الأمور إلى أقصى مداها نتيجة خلاف نهائي بين تشرشل وأعظم رجال البحرية في بريطانيا، أميرال الاسطول اللورد فيشر، أميرال البحرية الأول. كان تشرشل وفيشر قد اجتمعا واتفقا على برنامج تعزيزات للأسطول دعماً لحملة غاليبولي يوم الجمعة ١٤ أيار (مايو). وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي تسلم فيشر عدة مذكرات من تشرشل أجمل فيها النقاط التي اتفقا عليها ولكنه أضاف إليها مقترحات من عنده. فاحتد فيشر، الذي سبق ان أعلن في ثماني مناسبات سابقة انه يرغب في الاستقالة، واتجه مشياً من مقر الاميرالية إلى رقم ١١ شارع داونينغ المجاور لمقر الاميرالية وأبلغ وزير المالية، ديفيد لويد جورج، انه عازم على الاستقالة من منصبه. وقد أرسل لويد جورج في طلب رئيس الوزراء الذي كان في البناء المجاور رقم ١٠ شارع داونينغ، وحاولا كلاهما اقناع فيشر بالبقاء في منصبه، على الأقل موقتاً. ولكن فيشر رفض، وعاد إلى حجرته في مقر الاميرالية، فأقفل الباب، وأسدل الستائر. بعد ذلك توارى عن الأنظار بعض الوقت.

علم تشرشل بالوضع من زملائه، إذ ان فيشر رفض ان يقابله. وكانت المشكلة الفورية، ان البحرية - في خضم الحرب - صارت من دون قائد أعلى وان نيات الأعضاء الآخرين في مجلس الاميرالية لم تكن معروفة. وقد تلقى تشرشل يوم الأحد ١٦ أيار (مايو) تأكيدات بأن لوردات البحرية الثاني والثالث والرابع مستعدون للبقاء في مناصبهم. كذلك فإنه ضمن موافقة أميرال

---

(٢) مارغريت فيتز هيربرت، **الرجل الذي كان العباءة الخضراء: سيرة حياة اوبري هيربرت** (لندن: جون مري، ١٩٨٣)، ص ١٥١.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٥٥.

الاسطول سير آرثر ويلسون على العودة إلى المنصب الذي شغله قبل الحرب بصفة لورد البحرية الأول ليحل محل فيشر. وبما ان الصحافة ودنيا السياسة لم تكن بعد قد اطلعت على استقالة فيشر، عزم تشرشل ان يعلن استقالة فيشر والتوجيهات الجديدة في الاميرالية أمام مجلس العموم صباح الاثنين ـ قبل ان يتاح للمعارضة الوقت لإفساد خططه.

غير ان فيشر أرسل تلميحاً بما فعله إلى أندرو بونار لو، زعيم المعارضة، وقد فهم بونارلو بحدسه معنى التلميح، فكانت مهمته الأولى صباح الاثنين زيارة لويد جورج، فسأل بونار لو وزير المالية هل استقـال فيشر فعـلًا، وعندما أكد لويد جورج الاستقالة، عرض بونار لو رؤيته للعواقب السياسية الخطيرة التي يمكن توقعها نتيجة لذلك. وكانت المعارضة حتى ذلك الحين قد امتنعت عن تحـدي الحكومة في زمن الحرب، ولكن بونار لو قال الآن انه لم يعد قادراً على ان يضبط اتباعه. كان فيشر هو البطل في نظرهم، ولن يسمحوا ببقاء تشرشل في الاميرالية إذا غادرها فيشر. كما انهم لن يتوقفوا في حملاتهم عند هذا الحد، لأن أعضاء البرلمان من حزب المحافظين شعروا انه لم يعد في مقدورهم، إزاء الاخفاقات العسكرية المتتابعة، ان يؤيدوا حكومة من حزب الأحرار تأييداً غير مشروط.

كان الحل الذي طرحه بونار لو هو توسيع الحكومة. وقد اقترح ان تحل حكومة ائتلافية تمثل الحزبين الرئيسين في البرلمان وحزب العمال، محل حكومة الأحرار.

لقد أدرك لويد جورج في الحال قوة حجة المعارضة، فطلب إلى بونار لو ان ينتظر في الرقم ١١ شارع داونينـغ بينما ذهب هو إلى البناء المجاور للتشاور مع رئيس الوزراء. وقد طرح لويد جورج فكرة الحكومة الإئتلافية طرحاً قوياً على اسكويث، الذي وافق على الفكرة حالًا.

أما تشرشل فلم يعرف شيئاً مما يجري. فتوجه في ساعة مبكرة من بعد ظهر ذلك اليوم إلى مجلس العموم ليعلن ان لوردات البحر وافقوا على البقاء وقبلوا بأن يكون أميرال الاسطول ويلسون رئيسهم الجديد. ولدى وصوله تبين له ان لويد جورج واسكويث لن يسمحا له بإلقاء خطابه. وقال اسكويث انه لا يريد ان يجري النقاش المقرر بين الأحزاب. وأبلغ اسكويث تشرشل انه سيؤلف حكومة جديدة تضم الأحرار والمحافظين والعمال.

أعلن تأليف الحكومة الجديدة في ١٩ أيار (مايو) ١٩١٥. وقد عزل تشرشل من الاميرالية ومنح منصباً ثانوياً بصفة مستشار دوقية لانكاستر ـ في واقع الأمر وزيراً من دون حقيبة وزارية ـ ولكنه بقي عضواً في مجلس الوزراء الحربي.

لم تكن الأوساط السياسية تعلم آنذاك انه لو لقي تشرشل أذناً صاغية لكانت حملة الدردنيل قد نجحت في وقت لم يكن فيه عدد الإصابات قد تجاوز بضع مئات، وان بريطانيا بسبب معارضة قادة الأسـطول والجيش لآرائـه، مقبلة على حملة من شأنها ان تكلفها أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ اصابة، وهكذا فإن هذه الأوساط السياسية أخفقت في استيعاب حقيقة جوهرية وهي ان قادة قوات البر والبحر البريطانيين يخسرون الحرب وان بلادهم في حاجة ملحة ليس إلى اشراف مدني أقل، بل إلى اشراف مدني أكثر، على العسكريين.

وأخفقت الأوساط السياسية في بريطانيا أيضاً في استيعاب حقيقة جوهرية أخرى، وهي: ان الحلفاء كانوا الجانب الخاسر في الحرب الدائرة في الشرق، وليس هذا فقط، بل ان الجانب الآخر كان هو الجانب الرابح. لقد كانت نتائج الحملة تعبر عن حقيقة ان شجاعة وصمود الجنود الاستراليين والنيوزيلنديين والبريطانيين والفرنسيين كانت تماثلها شجاعة وصمود خصومهم العثمانيين.

(٢)

كان لويد جورج وراء انشاء هذه الحكومة الائتلافية الأولى التي حرم فيها تشرشل من منصب وزاري رئيس. وقد ادعى «انه كافح من أجل اسناد منصب رفيع إلى تشرشل.. بيد ان زملاءه أبوا ان يسندوا إلى تشرشل سوى منصب ثانوي»[٤]. غير ان لويد جورج كان يدري ان تشرشل المتأذي والغاضب يلقي الملامة عليه[٥]. لقد تحدثت زوجة تشرشل بمرارة، حتى بعد مرور سنين، عن وزير المالية لويد جورج مشبهة إياه بيوضاس الذي خان السيد المسيح وقائلة ان «خداعه الذي يتصف به أهل ويلز» قد حطم مسيرة حياة اللورد الأول للاميرالية. كذلك فإن دوق مارلبورو، ابن عم تشرشل بعث بمذكرة في ٢٤ أيار (مايو) قال فيها: «حقاً ان لويد جورج قضى عليك»[٦]. أما تشرشل نفسه فقد هتف قائلاً: «أنا ضحية مكيدة سياسية. لقد انتهيت»[٧].

كان لويد جورج دائماً يعتبر الحرب مع الامبراطورية العثمانية خطيئة تشرشل. وفي ربيع عام ١٩١٥ نظر لويد جورج نظرة أوسع إلى اخفاقات صنيعته السابقة. وعندما أصبح واضحاً انه لا مفر من مغادرة تشرشل للاميرالية، كان تعقيب لويد جورج هو «هذا جزاء الرجل الذي كافح على مدى سنوات من أجل هذه الحرب، وعندما وقعت الحرب رأى فيها فرصة تحقيق المجد لنفسه، وهكذا أقدم على حملة خطرة دون ان يهتم قيد أنملة بالبؤس والشقاء اللذين ستجلبهما هذه الحرب لآلاف الناس، مؤملاً ان يبرهن انه الرجل الفذ في هذه الحرب»[٨].

---

(٤) **مفكرة اللورد ريدل عن الحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨** (لندن: ايفور نيكولسون ووطسون، ١٩٣٣)، ص ٩٤.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٠٩.

(٦) جيلبرت، **تشرشل: تحدي الحرب**، ص ٤٧٦.

(٧) ريدل، **مفكرة**، ص ٨٩.

(٨) جيلبرت، **تشرشل: تحدي الحرب**، ص ٤٤٠.

الضوء الذي خبا

(١)

تولى الأعضاء الاتحاديون ـ المحافظون في الحكومة البريطانية الجديدة مناصبهم معتقدين ان مهمتهم هي حماية القيادة العسكرية في البلاد من تدخل المدنيين، وبعد النجاح في عزل تشرشل من الاميرالية، رأوا ان المادة التالية على جدول الأعمال هي حماية اللورد كيتشنر من خصمه الرئيسي، السياسي المنتمي إلى حزب الأحرار لويد جورج.

كانت ميزة ديفيد لويد جورج وزير المالية، انه كان أول عضو في مجلس الوزراء يسائل الفيلد مارشال كيتشنر في قرار اتخذه بعد ان أصبح وزير دولة للشؤون الحربية. ومنذ ان بدأ لويد جورج بمساءلة كيتشنر في احكامه، لم يعد يكف عن ذلك. ان هذا السياسي من حزب الأحرار، بدافع حرصه على تجنب الوقوع في مثل الحفرة التي قضت على تشرشل في الاميرالية، فلم يجرؤ في أول الأمر ان يتحدى الفيلد مارشال في مسائل عسكرية بحت. وإنما شنّ وزير المالية حملته على أرضية من اختياره هو. والمسألة التي أثارها هي نقص الذخائر والتموينات الأخرى. وبما ان هذه المسألة تشمل أمور اليد العاملة، والانتاج، والمالية، فقد كانت مسألة يتمتع بمؤهلات للكلام عليها تفوق مؤهلات كيتشنر.

في ١٩ أيار (مايو) ١٩١٥، اليوم الذي أعلن فيه تأليف الحكومة الجديدة، باشر لويد جورج المراحل النهائية لحملة نجحت في انتزاع مهمات الذخائر والتموين من وزارة الحربية التي يرأسها كيتشنر واسنادها إليه بصفته وزيراً للذخائر. وقد نجح في وزارته الجديدة في ان يحقق ما لم يستطع كيتشنر تحقيقه: توسيع الانتاج المدني للمواد الحربية وايجاد مصادر جديدة للتموين.

لقد بدأ أعضاء مجلس العموم الوحدويون ـ المحافظون الذين دخلوا الحكومة الائتلافية الجديدة ينظرون نظرة جديدة إلى لويد جورج واللورد كيتشنر، بعد ان كانوا قد كوّنوا رأياً مسبقاً

عن خصومتهما. وقد أصبح لويد جورج بصفته وزيراً للذخائر، أشبه بالعاصفة التي تزداد قوة ذاتية لتدمير العدو. وبدأ المحافظون ينظرون إليه نظرة اعجاب ويكيلون له ولجهوده الثناء. كان بونار لو وزملاؤه قد انضموا إلى مجلس الوزراء لحماية كيتشنر والعسكريين من تدخل المدنيين أشباه الهواة التابعين لحزب الأحرار، فإذا بهم فجأة يجدون أنفسهم قد انضموا إلى صف لويد جورج في اثارة الشك حول كفاءة كيتشنر.

كان القرار العسكري المسلح الذي واجه الحكومة الجديدة هو ما الذي ينبغي عمله بشأن حملة غاليبولي. لقد أعاد مجلس الحرب المنبثق عن مجلس الوزراء تكوين نفسه بشكل لجنة شؤون الدردنيل، فعقدت هذه اللجنة اجتماعها الأول في جناح اسكويث في مجلس العموم بتاريخ ٧ حزيران (يونيو) ١٩١٥، لمناقشة المسألة. وتتابعت بعد ذلك اجتماعاتها. وقد تبين للمحافظين ان وزير الدولة للشؤون الحربية لم يزودهم بالمعلومات التي يحتاجونها لإصدار حكم في المسألة. فقد كان كيتشنر كتوماً ومتردداً في الكشف عن معلومات عسكرية للمدنيين. وكان أحياناً يتجنب الرد على أسئلة، لأنه لم يكن يملك معلومات كافية ودقيقة وأحياناً أخرى كان يتخذ مواقف متناقضة.

كان بونار لو وزميله الرئيسي في حزب المحافظين، المدعي العام سير ادوارد كارسون، يميلان إما إلى التخلي عن هذه المجازفة أو إرسال تعزيزات كافية إلى غاليبولي ضماناً لنجاح الحملة. وكان السؤال هو: ما مستوى التعزيزات التي من شأنها ضمان النجاح، ولكن كيتشنر كان يمتنع عن بيان عدد الجنود لدى الجانب التركي في غاليبولي أو عدد الجنود البريطانيين الذين تدعو إليهم الحاجة لكسب المعركة. بل ظل بدلاً من ذلك يتحدث عن عدد الجنود الذين يمكن الاستغناء عنهم في الجبهة الغربية، وفي مطلع أيلول كتب كارسون بدافع الغيظ الشديد «ان الأمر الذي يمضني هو في حساباتنا كلها (إذا صح ان نكرمها بهذه التسمية) هي حسابات عشوائية على الاطلاق ـ فما يقال لنا دائماً هو كم نستطيع ان نرسل وليس كم هو ضروري»[1].

ولدى استجـواب وزارة الحربية في إحدى المناسبات، تبين للوزراء ان معلومة هامة كانت قد وردت برقياً إلى الوزارة، مع ان وزير الحربية أنكر أي اطلاع عليها. فإما ان يكون كيتشنر قد سهي عن البرقية أو انه اساء فهمها. وخلال اجتماع لمجلس الوزراء كتب كارسون على ورقة من قرطاسيـة رئـاسة المجلس ملحوظة مرّرها إلى لويد جورج عبر طاولة الاجتماعات وقال فيها: «كيتشنر لا يقرأ البرقيات ونحن لا نطلع عليها ـ أمر لا يطاق»[2].

بدأ كارسون يستجوب كيتشنر في اجتماعات مجلس الوزراء وكأنه مجرم متهم يقف في قفص الاتهام. إن مراوغة كيتشنر مقرونة بالتنبؤات الباعثة على الأمل التي كانت ترد من سير إيان

---

(١) مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل**، المجلد ٣: ١٩١٤ ـ ١٩١٦، **تحدي الحرب** (بوسطن: هوتن ميفلين، ١٩٧١)، ص ٥٢٩.

(٢) هـ. مونتغمري هايد، **كارسون** (لندن: وليم هاينمان، ١٩٥٣)، ص ٣٩٣.

هاملتون والتي بدت غير قابلة اطلاقاً للتحقيق، أشاعت في نفوس زعماء حزب المحافظين الإحباط واليأس. ومن العبارات التي تمثل نماذج لما كان يقال خلال جلسات لجنة الدردنيل، ان «سير ادوارد كارسون ذكر ان المذبحة المستمرة لا تحقق نجاحاً، وهو يسأل هل ينبغي ان تستمر» و«ان السيد بونار لو قد سأل ان كان يجب ان يواصل سير ايان هاملتون الهجوم ما دام واضحاً ان الهجوم لا يبعث على الأمل»[٣].

مسألة ما يجب عمله طالت وامتد بحثها حتى أواخر الخريف. وبدأ يتصلب الرأي في مجلس الوزراء المحبذ للانسحاب من غاليبولي، إذ ان كيتشنر عجز عن تقديم بديل واعد بالنجاح. ولكن كيتشنر خالف الرأي بحجة انه يجب على بريطانيا ان تثابر على القتال. وادعى ان «التخلي عن القتال سيكون أكبر حدث كارثي في تاريخ الامبراطورية» ولو انه في الوقت ذاته اعترف بأنه «يود ان يصفي الوضع»[٤].

ولم يكن لدى مجلس الوزراء استعداد باصدار أمر الانسحاب من غاليبولي من دون موافقة كيتشنر لا سيما ان القائد في الموقع، سير إيان هاملتون، ظل يأمل في النجاح. ولكن الوضع على شواطىء غاليبولي كان يدعو إلى اليأس، وقد توافق الرأي على ضرورة عمل شيء ما، بين ويندهام ديدز، الضابط الذي سبق ان حذر كيتشنر من الإقدام على مجازفة الدردنيل، ولكنه مع ذلك كان يؤدي الخدمة العسكرية في منطقة الدردنيل، وضابطين آخرين هما جورج لويد وغي داوني، وقد رسموا خطة لإرسال أحدهم إلى لندن لإبلاغ مجلس الوزراء حقيقة الوضع. وتوفرت الفرصة للضابط داوني فاغتنمها.

لدى عودة داوني إلى لندن قابل كيتشنر وغيره من القادة البريطانيين، ومن ضمنهم تشرشل الذي تدنى مركزه مؤخراً. حاول ان يبلغهم رسالته، فإذا بهم مترددون في قبول الحقيقة غير المستساغة المذاق. وكان ديدز قد حزر هو أيضاً ما الذي سيكتشفه داوني وقال له: «أراهن ان أفضل الذين التقيتهم هو ونستون بالرغم من كل شيء!»[٥].

في نهاية الأمر تم تعيين قائد آخر مكان إيان هاملتون، وقد رأى القائد البريطاني الجديد في الحال انه لا أمل في الوضع ودعا إلى جلاء فوري. ولكن مجلس الوزراء ظل متردداً. كانت المشكلة، هي هي، اللورد كيتشنر.

---

(٣) مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق**، المجلد ٣، الجزء ٢، أيار ١٩١٥ ـ كانون الأول ١٩١٦ (بوسطن: هوتن ميفلين، ١٩٧٣)، ص ١١٥٨.

(٤) جيلبرت، **تشرشل: تحدي الحرب**، ص ٥٤٩.

(٥) جون بريسلاند (الاسم المستعار لغلاديس سكيلتون)، **ديدز بك: دراسة عن سير ويندهام ديدز ١٨٨٣ ـ ١٩٢٣** (لندن: مكميلان، ١٩٤٢)، ص ٢٢٦.

(٢)

خيال لويد جورج الساطع شبّه عقل كيتشنر بالفنار الدوار. ولكن الضوء في هذا الفنار انطفأ فجأة في العاصفة الهوجاء التي ولّدتها حملة غاليبولي. وظل زملاء الفيلد مارشال ينتظرون في الظلام وقد استبد بهم الغضب وازداد نفاد صبرهم، عسى ان يبدد عتمة الليل شعاع الضوء الذي لم يعد ثانية إلى الدوران من حولهم.

وحتى بونار لو المحافظ تحول في موقفه إلى حد انه اقترح ان يحل لويد جورج محل كيتشنر في وزارة الحربية، غير ان رئيس الوزراء قاوم الاقتراح. لم يكن أحد يدرك اخفاقات الفيلد مارشال سوى المجموعة الداخلية في الحكومة. فقد بقي للفيلد مارشال انصاره في البلد، وشعر اسكويث ان ابداله مستحيل سياسياً. وكان الحل النموذجي الذي ارتآه رئيس الوزراء هو ارسال كيتشنر إلى الدردنيل في مهمة لجمع الحقائق على أمل ان يحتجز هناك زمناً غير محدد.

الذي حدث، هو ما ان ذهب كيتشنر إلى هناك ورأى بنفسه ساحة المعركة حتى شعر انه مضطر للموافقة على التخلي عن غاليبولي. وهكذا فإن مجلس الوزراء، بعد ان تسلح بموافقة كيتشنر أصدر أخيراً التفويض الضروري، وفي بداية عام ١٩١٦ اكتملت عملية الجلاء ـ هذه العملية التي كانت بكل المقاييس أروع عملية في الحملة. وقد وصف ديدز الجلاء بأنه واحد من أبرز الأشياء في التاريخ»[٦].

(٣)

في ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩١٥ كان باستطاعة الحلفاء ان يحصلوا على نصر سهل غير دموي بواسطة هجومهم المفاجىء، ولكن بعد ذلك التاريخ بمئتين وتسعة وخمسين يوماً، عندما انسحبوا مهزومين من مواقعهم الأخيرة على شواطىء الدردنيل التي روتها الدماء، تبين انهم خسروا واحداً من أكثر الاشتباكات العسكرية كلفة في التاريخ. كان عدد الجنود المشتركين في المعركة نصف مليون جندي في كل جانب، وقد بلغ عدد الإصابات في كل جانب من الجانبين ربع مليون جندي.

كانت معركة حاسمة، من حيث انه كان بإمكان الحلفاء ان يربحوها وان يربحوا معها حرب الشرق الأوسط ـ فلم يربحوها. وقد ألقت هذه المعركة بظلالها أيضاً على ما هو مقبل من الأمور. إن جيشاً آسيوياً كان يفترض انه متخلف قد هزم جيشاً أوروبياً عصرياً.

كان لذلك تأثيره من حيث جر أوروبا إلى شؤون الشرق الأوسط على أساس طويل الأجل. والتورط العسكري الذي خشيه كيتشنر وفشل في منعه قد توقف مؤقتاً نتيجة جلاء الحلفاء، ولكنه سوف

(٦) المرجع نفسه، ص ٢٣١.

يستأنف بعد سنة. وأهم من ذلك ان النكسة التي أصابت الحلفاء قد دفعت ببريطانيا بالمعنى المحدد والمعنى العام إلى توريط نفسها بصورة أعمق في شؤون الشرق الأوسط. ومن حيث المعنى الخاص، كما سيتبين حالياً، دفعت هذه النكسة مساعدي كيتشنر إلى التحالف مع حاكم شرق أوسطي اعتقدوا ان بإمكانه ان يساعد في انقاذ جيوش سير إيان هاملتون في غاليبولي من الهلاك. ومن حيث المعنى العام، فإن مجرد ضخامة التزام بريطانيا وخسارتها في غاليبولي جعلها ترى بعد مرور سنوات ذات أهمية حيوية انه ينبغي لها ان تلعب دوراً رئيساً في الشرق الأوسط بعد الحرب لكي تعطي معنى ما لتضحية بهذا الحجم الكبير.

(٤)

في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥، وبعد ان استقال تشرشل من منصبه كمستشار لدوقية لانكستر، عبر البحر إلى فرنسا ليخدم هناك، بناء على طلبه، ضابطاً في الجيش على الجبهة الغربية. وقد ظل العالم السياسي يلقي عليه تبعة ما حدث في غاليبولي. بيد ان كيتشنر أيضاً أخذ يتلقى اللوم في مجلس الوزراء، وكان يعرف انهم يلومونه.

أدرك اللورد كيتشنر ان زملاءه في مجلس الوزراء كانوا يأملون ألّا يعود من رحلته إلى الدردنيل، ولكنه تعمد ان يخيب آمالهم. ولدى عودته إلى لندن في نهاية عام ١٩١٥ تحدث صراحة إلى رئيس الوزراء عن فقدانه التأييد داخل مجلس الوزراء وعرض ان يستقيل. وبما انه لم يعثر على بديل له مقبول، فقد تبنى اسلوباً مختلفاً لمعالجة الموقف. وبموافقة رئيس الوزراء عمل على احداث تبديل أساسي في طبيعة المنصب الذي كان يشغله بصفته وزيراً للحربية، وبهذا التبديل خفض سلطات ومسؤوليات شاغل هذا المنصب. ثم جيء بجندي مقاتل من الجبهة الغربية، هو الفيلد مارشال سير وليم روبرتسون، وعيّن في منصب رئيس هيئة الأركان العامة لقوات الامبراطورية ومنح سلطات موسعة كثيراً بعد ان كانت هذه السلطات ضمن اختصاص كيتشنر بصفته وزيراً للحربية.

مع ذلك احتفظ كيتشنر بسلطة صياغة السياسة تجاه الشرق الأوسط من الناحية السياسية. وعندما عاد إلى لندن في نهاية عام ١٩١٥، عاد مساعده سير مارك سايكس إلى لندن أيضاً من رحلة لجمع الحقائق، حاملاً معه أنباء مثيرة عن حاكم شرق أوسطي يمكن ان يتحالف مع بريطانيا، وعن برنامج ثوري على أساس ذلك التحالف لتحويل التيار في الحرب العثمانية ـ وكان على كيتشنر ان يسعى لإقرار هذا البرنامج في مجلس الوزراء.

الفصل العاشر

انشاء المكتب العربي

(١)

في شتاء عام ١٩١٥ ـ ١٩١٦، وفيما كان الحلفاء يخططون للجلاء عن غاليبـولي وينفـذونه، وفيما تولى اللورد كيتشنر دوراً أصغر في توجيه الحرب، حدث تحول جديد في السياسة البريطانية تجاه الشرق الأوسط: لقد بدأ كيتشنر وزملاؤه التركيز بطريقة منظمة على الفوائد التي يمكن ان تجنيها بريطانيا من استخدام الزعماء العرب والجنود العرب الناقمين داخل الامبراطورية العثمانية. وكانوا يتصرفون على أساس توصيات عاد بها من الشرق سير مارك سايكس، الذي عيّنه كيتشنر شخصياً خبيراً في شؤون الشرق الأوسـط. كان سايكس عائداً إلى بلاده من مهمة طويلة لاستقصاء كيفية تعامل الحلفاء مع الشرق الأوسط المهزوم ـ وهي مهمة لم يكن لها الكثير من صفة الاستعجال بعد النصر الذي حققته تركيا في غاليبولي. إن المشاريع كثيراً ما تولد من ذاتها قوة دفع: ففي شتاء عام ١٩١٥ استمر الهجوم البحري البريطاني على الدردنيل بعد ان حلّت المشكلة الروسية التي كان القصد من الهجوم تخفيف آثارها، وبعد انتهاء فصل الشتاء استمر التخطيط لكيفية اقتطاع الشرق الأوسـط بالرغم من ان الاستيـلاء على القسطنطينية الذي كان يتوقعه تشرشل ـ والذي كان الدافع إلى هذا التخطيط ـ لم يتحقق.

وبعد ان قدمت لجنة دوبونسين ـ التي كان يوجهها سير مارك سايكس ـ تقريرها عن الشرق الأوسط بعد الحرب بتاريخ ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩١٥، أرسلت الحكومة البريطانية سايكس إلى الشرق ليبحث توصيـة اللجنة مع الضباط والمسؤولين في المنطقة. وقد سافر إلى البلقان، وسـافـر إلى مصر مرتين (مرة في الذهاب وأخرى في الإياب)، وإلى الخليج الفارسي، وإلى بلاد الرافدين، وإلى الهند. كانت مهمة كبيرة. فقد استغرقت رحلة سايكس نصف عام، وأتاحت له فرصة فريدة للاطلاع على وجهات نظر مختلفة، ولكنه لم يتمكن من الاجتماع مع أعضاء مجلس الوزراء في لندن ليطلعهم شخصياً على ما تجمع لديه إلّا وكان عام ١٩١٦ على عتبة البداية.

لدى توقفه المرة الأولى في القاهرة ـ وكان ذلك في طريق الذهاب في صيف عام ١٩١٥ ـ اجتمع سايكس مع مستشاري كيتشنر لشؤون الشرق الأوسط في مصر. وحدث ان رونالد ستورز، الذي تعرف إليه سايكس قبل الحرب، قدمه إلى جيلبرت كلايتون. وفي الحال شكل الدين رابطة بينهما: فقد كان كلايتون مسيحياً متديناً وأعجب سايكس اعجاباً شديداً بجديته. وقد أصبحا صديقين وزميلين أيضاً، ولو ان سايكس كان أكثر انفتاحاً في تعامله مع كلايتون مما كان كلايتون في تعامله مع سايكس.

إن أصدقاء سايكس قد عرفوه إلى شخصيات ناطقة بالعربية ذات آراء مؤيدة لبريطانيا، وأصبح سايكس أحد دعاة الأخذ بوجهة نظر كلايتون القائلة ان سورية يجب ان تصبح بريطانية. وقد أقنعه كلايتون وستورز بأن سكان المنطقة سيرحبون بمثل هذا التطور. أما فرنسا ـ حسب قوله ـ فيمكن تعويضها في مكان آخر، وفي أية حال فإن الفئات الوحيدة في فرنسا التي تطالب بسورية هي فئات رجال الدين أو فئات الساعين وراء الامتيازات التجارية[1]. وقد استمالته الخطة التي كان يدعو إليها آنذاك أصدقاؤه كما كان يدعو إليها وينغيت للارتقاء بالشريف حسين إلى مركز الخليفة، وهي خطة تنسجم تماماً مع وجهة نظره في ان الخلافة يجب ان تنقل إلى الجنوب، وهكذا انحاز سايكس إلى مشروع «الامبراطورية المصرية» الذي كان ينادي به ستورز. وكان هذا المشروع يقترح كياناً عربياً واحداً يحكمه روحياً الشريف حسين ويحكمه دنيوياً واسمياً ملك مصر وهو ملك منصبه رمزي، على ان تدار شؤون الحكم من القاهرة ومن قبل المندوب السامي البريطاني ـ الذي كان يفترض ان يكون اللورد كيتشنر.

ولكن كان في القاهرة تيار رأي وجده سايكس مزعجاً: والمقصود بذلك هو الحديث عن منافسة بين بريطانيا وفرنسا في الشرق الأوسط. ولم يكن سايكس يرى وجود أية أسباب جدية لاختلاف الدولتين الحليفتين في زمن الحرب. كان يظن ان فرنسا غير معنية فعلياً بسورية وان بالامكان اقناعها بأن تبحث في مكان آخر عن حصتها من الغنائم. وافترض سايكس ان الحديث عن المنافسة هو من وحي مروّجي الدعاية للعدو. ولم يتبين له إلاَّ بعد مرور شهور عديدة ان الكلام المعادي لفرنسا (وما هو أكثر من الكلام) صادر عن بعض أصدقائه في القاهرة، ولم يعرف قط ان أحد زعماء هذه الجماعة كان صديقه جيلبرت كلايتون.

(٢)

عندما وصل سايكس إلى الهند، القطب السياسي الآخر، لقي فيها استقبالاً أقل من ودّي. كان سايكس شاباً في منتصف أول سنة يمضيها في عمل حكومي يتولاه، وكان قد انطلق من لندن ليتحدث إلى الهند عن الشرق. والرجل الذي جاء سايكس لمقابلته يكبره سناً بعقدين من السنين

(١) روجر ادلسون، **مارك سايكس**: **لوحة هاو**(لندن: جوناثان كيب، ١٩٧٥)، ص١٨٧.

وأمضى حياته في العمل الحكومي، وكان واحداً من أبرز المتخصصين في بريطانيا في السياسة الخارجية. هذا الرجل هو تشارلز ردينج، وهو سفير سابق لدى فرنسا وسبق ان كان الموظف المحترف المسؤول عن وزارة الخارجية قبل مجيئه إلى الهند نائباً للملك. وبصفته حاكماً عاماً كان يؤدي عمله بتقاليد عائلية تعود إلى القرن السابق. فقد كان جده حاكماً عاماً للهند في الأربعينات من القرن التاسع عشر، أي في العقد الذي سبق حركة التمرد في الهند. وكانت السياسة التي ينادي بها هاردينج تقضي بأن تحتل الهند بلاد الرافدين وتضمها إليها، وكان يرى ان مقترحات القاهرة «خيالية بالمطلق» وانها «مميتة تماماً». وقد رفض فكرة استقلال العرب، مهما كان اسمياً. وكتب يقول: «يبدو ان سايكس غير قادر على استيعاب حقيقة ان في تركيا أجزاء غير مؤهلة للمؤسسات التمثيلية»[٢].

وقد كان سايكس أكثر ميلاً من أي وقت آخر لتأييد القاهرة ضد سيملا، فبدأ يعتقد ان الاختلاف في وجهات النظر وفي الصلاحيات كان في حد ذاته ضاراً. وكان يقول: «ان طريقتنا التقليدية التي تسمح لأصحاب مناصب مختلفة بأن يقدم كل منهم عرضاً على طريقته، كانت صالحة في الماضي عندما كانت هذه القطاعات تتعامل مع مشاكل متباينة ولا رابطة بينها، أما الآن فهي طريقة سيئة لأن كلاً من هذه القطاعات يتعامل في الحقيقة مع عدو مشترك»[٣]. لم تكن هناك سياسة مركزية: فكل من سيملا، والقاهرة، ووزارة الخارجية، ووزارة الحربية، والاميرالية، كانت تدير عملياتها الخاصة، وهذا ما كان يفعله أيضاً المسؤولون في الميدان، إذ كان كل منهم يجهل في عمله ما كان يفعله الآخرون، وكثيراً ما كانت تتضارب الغايات. كانت هناك عقبات رهيبة تعترض طريق التوصل إلى سياسة: فقد أحصى سايكس ذات مرة ثماني عشرة جهة يجب استشارتها قبل ان يكون بالإمكان التوصل إلى قرار متفق عليه[٤].

وقد استكشف سايكس إبان رحلته فكرة انشاء مكتب جامع يتولى مسؤولية الشؤون العربية. أظهرت القاهرة حماسة للفكرة، وفي ١٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٥. ذكر كلايتون انه شرع في تجميع نواة مكتب للشرق الأدنى وانه يأمل في ان يمضي سايكس قدماً في اقرار المشروع[٥]. وقد مضى سايكس قدماً بالفعل عندما عاد إلى لندن في نهاية عام ١٩١٥، إذ اقترح انشاء وكالة مركزية لتنسيق السياسة: أي «المكتب العربي» الذي يجب انشاؤه في القاهرة على ان يكون بادارته. وفي الوقت نفسه حث وزير الدولة الجديد لشؤون الهند، أوستن تشامبرلين على انشاء

---

(٢) بريتون كوبر بوش، **بريطانيا والهند والعرب ١٩١٤ ـ ١٩٢١** (بيركلي ولوس انجلس ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٧١)، ص ٦٩.

(٣) ادلسون، **سايكس**، ص ١٩٢.

(٤) س. ج. تلاو وم. ل. دوكريل، **سراب السلطة**، المجلد ٢، **السياسة الخارجية البريطانية ١٩١٤ ـ ١٩٢٢** (لندن وبوسطن: روتليدج وكيغان بول، ١٩٧٢)، ص ٢٠٩.

(٥) هـ.ف.ف. وينستون، **جيرترود بل** (لندن: جوناثان كيب، ١٩٧٨)، ص ١٦٢.

مكتب اسلامي لمكافحة دعاية العدو في الهند وفارس وافغانستان. وقد أوضح نائب الملك في الهند، في ردّه، انه يعارض انشاء أي مكتب غايته التدخل في مجالات تقع في نطاق اختصاصه، وخصوصاً إذا تولى سايكس واصدقاؤه المسؤولية في هذا المكتب. وفي أوائل كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ أصدر اسكويث أمراً بعقد مؤتمر يضم ممثلين من مختلف الوزارات للنظر في انشاء مكتب اسلامي.

لقد توصل أعضاء المؤتمر إلى اتفاق على قبول اقتراح سايكس، ولكن مع تعديل هام قضى على مضمونه. فالمكتب العربي (هكذا تقرر ان يسمى) لن يكون هيئة منفصلة، بل مجرد قسم في دائرة المخابرات في القاهرة. وهذا ما أصر عليه كيتشنر (ممثلاً بفيتز جيرالد) وأصرت عليه أيضاً وزارة الخارجية، فلم يكن في نيتهما التنازل عن الاشراف الذي يمارسانه على السياسة البريطانية. لقد صدر تفويض إلى القاهرة بإقامة كيان جديد وتعيين جهاز موظفيه، ولكن لم يتم انشاء وكالة مركزية تكون مسؤولة عن السياسة العامة ـ مع ان هذا ما هدف إليه اقتراح سايكس. وقد استمرت الادارات الحكومية المختلفة في اقرار وتنفيذ سياساتها المستقلة والتي غالباً ما كانت متناقضة. وبقي الدور الرئيس هو دور كيتشنر الذي كان يرجع إليه وزير الخارجية. واستمر سايكس في صنع السياسة، ولكن فقط بصفته ممثلاً لكيتشنر وليس بصفته رئيساً لوكالة مستقلة. وقد أصر كيتشنر، الذي لم يكن يرغب في التخلي عن الاشراف، على بقاء الوضع على حاله.

لقد تساءل رئيس المخابرات البحرية عن الداعي لإنشاء المكتب الجديد في القاهرة على غرار ما اقترحه سايكس وكلايتون. ولتهدئة خاطره جرى تعيين مرشحه، ديفيد هوغارت، وهو خبير في علم الآثار من جامعة اوكسفورد عمل ضابطاً في المخابرات البحرية، رئيساً للمكتب. وكان هوغارت شخصاً يكتنفه الغموض وسبق ان عمل في أجهزة المخابرات البريطانية قبل الحرب.

لقد حلّ هوغارت محل القائم بأعمال رئاسة المكتب العربي، الفرد باركر، وهو ضابط في الجيش وابن شقيق كيتشنر. ومنذ البداية عمل هوغارت تحت إدارة كلايتون مباشرة، ويبدو انه كان يشاطره آراءه الرئيسة.

وقد كافح المكتب العربي برئاسة هوغارت لتثبيت آراء وينغيت وكلايتون ـ اللذين أرادا توسيع اشراف مصر البريطانية على العالم العربي ـ خلافاً لآراء وزارة الخارجية وحكومة الهند.

لقد حلّ في منصب نائب هوغارت ضابط هادىء الطبع من حكومة السودان يدعى كيناهان كورنواليس، وعيّن ضابط يدعى ج. سايمن، سكرتيراً لوينغيت، وقد جاء هذا الضابط إلى المكتب العربي من السودان. وانضم إلى المكتب أيضاً فيليب غريفز، وهو مراسل سابق لجريدة «التايمز». وقد أرسل هوغارت في طلب توماس ادوارد لورانس، وكان شاباً عمل معه في متحف أشموليان في اكسفورد، وظل هوغارت رئيساً له في حياته العملية منذ ذلك الحين(*). وقد اشتهر

(*) عمل لورانس مع المكتب العربي وكانت صلته به وثيقة، ولكنه لم يعين فيه رسمياً حتى نهاية عام ١٩١٦.

لورانس في ما بعد بلقب «لورانس العرب».

في أول الأمر لم يكن لدى كلايتون خبير في الشؤون التركية ـ وبما انه كان يشن حرب مخابرات على تركيا، فقد كان ذلك نقصاً جلياً. ثم جاءته ضربة حظ، ففي ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٥ وصل إلى القاهرة قادماً من غاليبولي ويندهام ديدن، الذي سبق ان خدم في الدرك العثماني قبل الحرب. وقد نجح كلايتون في مطلع شهر كانون الثاني (يناير) في اختياره نائباً لرئيس المخابرات المصرية، حيث اثبتت معرفته بالشؤون التركية انها ميزة لا تقدر بثمن.

وما لبثت القاهرة ان أخذت تعج بالشباب من أعضاء البرلمان وغيرهم من أصحاب الطموح لأن يكون لهم كلمة في السياسة الشرق أوسطية، وكان هؤلاء جميعاً يدورون حول المكتب العربي. ومن هؤلاء عضوا البرلمان اوبري هيربرت وجورج لويد وكلاهما صديقان لمارك سايكس منذ ما قبل الحرب. وأخيراً أصبحت القاهرة مركزاً لصنع السياسة البريطانية في الشرق الأوسط، وشعر كلايتون بالارتياح والرضى، إذ علم ان من يصنع فعلاً سياسة بريطانيا الشرق أوسطية في لندن هما زعيم القاهرة، اللورد كيتشنر وممثله، مارك سايكس.

اعطاء الوعود إلى العرب

(١)

لدى عودة سايكس من الشرق في نهاية عام ١٩١٥، جلب معه إلى لندن شيئاً أكثر مدعاة للذهول في ذلك الحين وأهميته أكثر ديمومة من فكرته الخاصة بإنشاء مكتب عربي. إن ما عاد به إلى لندن كان نبأ عن شاب عربي غامض ادعى أمامه انه واصدقاءه يستطيعون مساعدة بريطانيا على كسب الحرب. كان اسم هذا الشاب محمد شريف الفاروقي.

لا شيء كان معروفاً عن الفاروقي آنذاك، وقليل ما هو معروف عنه الآن. فقد برز في خريف ١٩١٥ بعد ان كان مجهولاً، واستحوذ على انتباه الحكومة البريطانية منذ ذلك الحين وخلال جزء كبير من عام ١٩١٦، قبل ان يعود كما كان انساناً مجهولاً ويموت وهو في مقتبل العمر في حادث من حوادث الطرق في العراق في عام ١٩٢٠ خلال إحدى غارات القبائل. وخلال الأشهر حينما كان في بقعة الضوء في عامي ١٩١٥ ـ ١٩١٦ جعل بريطانيا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تعد بتقديم تنازلات لفرنسا، وروسيا، والعرب، وغيرهم في الشرق الأوسط بعد الحرب. وهو كوسيط بين المسؤولين البريطانيين والزعماء العرب اما ان يكون قد أسيء فهمه أو ان يكون قد أساء عرض آراء كل من الجانبين للآخر. ولا يملك المرء إلاّ ان يخمن في عواطفه. لقد خلف هذا الشاب للشرق الأوسط في القرن العشرين تركة من سوء التفاهم لم يستطع الزمن بعد ان يبددها كلياً.

(٢)

إن خلفية واقعة الفاروقي المدهشة هي شبه اتفاق كان اللورد كيتشنر قد توصل إليه مع الشريف حسين أمير مكة عند بداية الحرب. وكما ذكرنا سابقاً فإن اللورد كيتشنر الذي كان ينظر إلى الشريف حسين باعتباره قوة روحية أكثر مما كان ينظر إليه باعتباره قوة مادية(*)، شرع في

(*) كان ريجينالد وينغيت، الذي كان حاكماً للسودان، الوحيد بين أتباع كيتشنر الذي اعتقد منذ بداية الحرب العثمانية، ان الشريف حسين يمكن أن يعين بريطانيا عسكرياً.

مراسلة أمير مكة في خريف عام ١٩١٤ وانتهت المراسلات بينهما إلى شروط مرضية لكليهما. ولم يكن مطلوباً من الحسين(*) ان يفعل شيئاً آنذاك. ما كان مطلوباً منه فقط هو الا يستخدم مكانته الروحية ضد بريطانيا في الحرب العثمانية (وهذا ما كان كيتشنر يخشى ان يفعله الشريف حسين) وان يستخدمها، في وقت ما في المستقبل لمصلحة بريطانيا (وهذا ما كان كيتشنر يأمل ان يفعله الشريف حسين عند انتهاء الحرب واستئناف المنافسة بين بريطانيا وروسيا).

بعد ان سويت الأمور في مطلع عام ١٩١٥ فوجىء مقر المعتمد البريطاني في القاهرة برسالة أخرى تلقاها من الشريف حسين بعد مرور نصف عام، أي في صيف عام ١٩١٥، يطالب فيها فجأة - ودون تفسير - بأن تصبح آسيا العربية كلها تقريباً مملكة مستقلة تحت حكمه. (أشرنا سابقاً إلى ان المسؤولين البريطانيين كانوا لا يعرفون ان الحسين سيفهم انهم يعرضون عليه مملكة حينما اقترحوا عليه ان يصبح خليفة عربياً، ولم يدركوا ان المملكة لا الخلافة هي التي كانت تغريه في ذلك الحين).

إن طلب الحسين غير المتوقع، والذي جاء دون تفسير بعد شهور من الصمت، قد أثار الاستغراب والضحك في القاهرة البريطانية. وقال رونالد ستورز في تعقيب ساخر انه ينبغي للحسين ان يرضى بأن نسمح له بالاحتفاظ بولاية الحجاز. وقال ستورز ان الحسين «يعرف انه يطلب، ربما كأساس للمفاوضات، أكثر كثيراً مما له الحق، أو لديه الأمل، أو عنده القوة التي تسمح له بتوقعه»(1). إن سير هنري مكماهون، المندوب السامي البريطاني في مصر، بدافع الرغبة في عدم تثبيط همة الحسين، أرسل إليه جواباً رقيقاً قال فيه ان بحث الحدود في الشرق الأوسط ينبغي تأجيله إلى ما بعد انتهاء الحرب.

ولكن مطالبة الحسين المفاجئة بمملكة عربية مستقلة لم تكن بأي حال من الأحوال ذلك العمل المجانب للمنطق حسبما بدت آنذاك في القاهرة. والأمر الذي كان يجهله مكماهون وستورز هو ان ما حدث في مكة كان اكتشاف الحسين في شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٥ دليلاً خطياً على ان الحكومة العثمانية تخطط للإطاحة به عند انتهاء الحرب - والحقيقة انها أرجأت الاطاحة به لا لسبب إلَّا لأن الحرب كانت مقبلة(2). وقد سارع إلى ارسال ابنه فيصل لمقابلة الصدر الأعظم في القسطنطينية، مع علمه ان الأمل ضئيل في اقناع الباب العالي بالتراجع عن هذا القرار.

كانت خطة حزب تركيا الفتاة للاطاحة بالشريف حسين هي التي دفعته، بالرغم من ميوله، إلى معارضة تركيا في الحرب. وخوفاً من احتمال ان تكون هذه المعارضة سبباً لعزلته في العالم

(*) الحسين بن علي، شريف مكة وأميرها يذكر اسمه بأشكال مختلفة فيقال الحسين، الشريف، الشريف حسين، الأمير حسين ولاحقاً الملك حسين. ويشار اليه ايضاً انه حاكم الحجاز ولاحقاً ملك الحجاز.

(١) روجر ادلسون، **مارك سايكس: لوحة هاو** (لندن: جوناثان كيب، ١٩٧٥)، ص ١٨٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٨٩.

العربي، أوفد ابنه فيصل إلى دمشق ليستقصي امكانية الحصول على تأييد الجمعيات السرية العربية التي كانت تتخذ من دمشق مقراً لها. ولكي يقوم بهذه المهمة، توقف فيصل في دمشق مرتين: مرة وهو في طريقه إلى القسطنطينية لمقابلة الصدر الأعظم، ومرة أخرى في طريق العودة من القسطنطينية.

ولدى توقفه في دمشق المرة الأولى، في أواخر آذار (مارس) ١٩١٥ قيل له ان هناك ثلاث فرق في الجيش العثماني غالبية أفرادها من العرب وهي مركزة في منطقة دمشق، وان الجمعيات السرية تعتقد ان هذه الفرق ستسير خلف قيادته. ومع ان أعضاء الجمعيات السرية تحدثوا عن القيام بثورة على تركيا، فقد عبروا أيضاً عن تحفظات في هذا الصدد. فمن ناحية كان معظمهم يعتقد ان تركيا ستربح الحرب سريعاً، وبذلك لا بد ان يسألوا أنفسهم ما الذي يجعلهم ينحازون إلى الجانب الخاسر. ومن ناحية أخرى، بالمقارنة بين الامبراطورية العثمانية والحلفاء الأوروبيين كانوا يفضلون ان يحكمهم أتراك مسلمون على ان يحكمهم مسيحيون أوروبيون.

ومع ندرة الأدلة على ما كانوا يخططون له، فالظاهر ان أعضاء الجمعيات السرية كانوا ميالين إلى طرح مزايدة بين بريطانيا وتركيا من رجل كسب ولاء العرب. فقد نصحوا الحسين (عن طريق فيصل) بعدم الانضمام إلى الحلفاء ما لم تتعهد بريطانيا بتأييد استقلال معظم غربي آسيا العربية. وإذا ما حصلت الجمعيات السرية على هذا التعهد البريطاني تستطيع عندها ان تطلب إلى الامبراطورية العثمانية مضاهاة هذا التعهد.

انطلق فيصل بعد الاجتماعات التي عقدها في دمشق إلى القسطنطينية لمقابلة الصدر الأعظم. ولدى وصوله إلى دمشق في ٢٣ أيار (مايو) ١٩١٥، في طريق العودة إلى بلده، وجد ان الوضع قد تبدل تبدلاً كبيراً. ذلك ان جمال باشا، حاكم سورية التركي، كان قد شم رائحة مؤامرة عربية واتخذ خطوات لسحقها، بعد ان سحق الجمعيات السرية واعتقل كثيرين من زعمائها وشتت شمل الآخرين، كما انه قام بتجزئة فرق الجيش الثلاث ذات الأغلبية العربية، وأرسل الكثيرين من ضباطها إلى غاليبولي وأماكن أخرى[٣].

بقيت حفنة من المتآمرين ـ ستة رجال حسب إحدى الروايات، وتسعة حسب رواية أخرى[٤] ـ وقد أبلغ هؤلاء فيصل انه لم يعد في مقدورهم الشروع في ثورة على الامبراطورية العثمانية، فلا بد للحسين من اشعال الثورة ومن ثم يسيرون خلفه ـ هذا إذا استطاع الحسين ان يقنع أولاً البريطانيين بأن يتعهدوا بتأييد استقلال العرب.

وكان أعضاء الجمعيات السرية قد أعدوا مسودة وثيقة تحدد المناطق التي ينبغي ان تكون عربية ومستقلة، وقد سميت هذه الوثيقة بروتوكول دمشق، فحملها فيصل معه من دمشق إلى مكة، وقد

(٣) **الرسائل السرية من شبه الجزيرة العربية ، بقلم ث . ا . لورانس** (مطبعة غولدن كوكيريل)، ص ٦٩.

(٤) س. ارنست دون، **من العثمانية إلى العروبة مقالات عن اصول القومية العربية** (اوربانا وشيكاغو ولندن: مطبعة جامعة ايلينوي، ١٩٧٣)، ص ٣٠